الحسيني

هل الادباء بشر

لصديقي الكبير عباس

اخوه

٢٢/٢/٥١

[illegible]

الدكتور إسحق موسى الحسيني

892.709
Ha394hA

هل الأدباء بشر؟

cat. 9 Mar: 53

دار العلم للملايين
بيروت

للمؤلف

•

١ – رأي في تدريس اللغة العربية .

المطبعة التجارية في القدس ١٩٣٧

٢ – علماء المشرقيات في انكلترا .

المطبعة التجارية في القدس ١٩٤٠

٣ – مذكرات دجاجة .

دار المعارف في القاهرة ١٩٤٣

٤ – العروض السهل (جزءان) .

بالاشتراك مع الاستاذ فائز الغول

المطبعة العصرية في القدس ١٩٤٥

٥ – فن انشاء الشعر العربي (مترجم عن الفرنسية) .

بالاشتراك مع الاب اسطفان سالم

مطبعة الآباء اليسوعيين في القدس ١٩٤٥

٦ – عودة السفينة .

مكتبة فلسطين العلمية في القدس ١٩٤٥

٧ – اساليب تدريس اللغة العربية .

مطبعة بيت المقدس في القدس ١٩٤٧

مقدمة

•

هذه فصول في الأدب كُتبت في أوقات مختلفة ، وأتاح لها الحظّ أن تجمع وتطبع في بيروت ، كما أتاح لصاحبها أن يهبط هذا البلد الكريم . وقد أُطلق على المجموع عنوان الموضوع الأول ، من باب تسمية الكلّ بالجزء ، كما فعل أبو تمام إذ أسمى ديوانه المشهور « ديوان الحماسة » ، مع ان الحماسة أحد أبوابه ، وهو ضرب من المجاز المرسل في علم البيان .

ولا يتوهمنّ القارىء الكريم أن هذه الفصول منقطعة الأصول . فبعضها شطر من كتاب كنت أرجو أن يتّسع الوقتُ لتبويبه وطبعه . ولكنّ الأصول ظلت في مكانها في الوطن الغالي مع سائر ما خلّفناه في تلك البقعة المقدسة لتظلّ قلوبنا وعقولنا منوطةً بما لن يُنسى مع مرّ الليالي والأيام .

وربما يعترض معترض على الكتابة في الأدب في حين

كان ينبغي ان تكون تلك المحنـــة القاصمة للظهور المحور الذي يدور حوله القلم . وهو اعتراض ينطوي على شعور نبيل لا سبيل الى دفعه . وهو ما دعا الى ظهور فصلين في الكتاب : الأول يتناول الأدباء في فلسطين من قـــديم الزمان الى الوقت الحاضر لاثبات الأصالة الأدبية في الوطن الغالي ، على نحو ما يرى القارىء . والثاني يترجم لأديب العربية أستاذي المرحوم محمد إسعاف النشاشيبي . ولعلّ في هذين الفصلين بعض الشفاعة .

اسعد موسى الحسيني

الجامعة الاميركية
بيروت

هل الادباء بشر ؟

•

يحدوني الى كتابة هذا المبحث عبارة وردت في مقال للاستاذ احمد امين بك في مجلة الثقافة – العدد ٢٣١ – موضوعه « الشيخ رفاعة الطهطاوي مؤسس النهضة العلمية الحديثة » . والعبارة هي : « ... ولقد أذكرني ذلك بحكاية ظريفة . فقد كنت أتبادل مع سيدة انكليزية جميلة تعلّم الانكليزية والعربية . وكان لها عينان تشعان الثقة والاخلاص والامانة ، وكان يصعب عليها النطق بالعين . فكانت تقول : « إن عينكم هذه تقتلني » ، فأقول في نفسي : « وعينكم ايضاً تقتلني ! » .

وهذه أول مرة – على ما أعلم ... يكشف فيها استاذي الجليل – حفظه الله – عن سريرة من سرائر نفسه بعبارة في غاية الايجاز والوضوح والجمال .

ومدلول العبارة أن الاستاذ كان في وقت ما ، ولمدة لا أحسبها قصيرة ، تحت تأثير عينين لا أصفهما بأبلغ مما

وصفهما هو بقوله : قاتلتين . فما فعلت هاتان العينان القاتلتان بقلب الاستاذ ، وما اثرتا في روحه وأدبه ؟ ليس فيما كتب الاستاذ من مؤلفات ومقالات ما ينبيء عن هـــذا التأثر ، لا سيما ومقالاته الوجدانية نادرة ، على ما اعلم . فهل يستنتج إذن ان تينك العينين القاتلتين لم ينفذ سمُّهما – استغفر الله – أقصد سحرهما الى شغاف قلب الاستاذ ، ولم توحيا اليه كتاباً ولا فصلاً ولا مقالاً ؟ ما أظن أن هذا معقول ولكن المعقول ، إذا كان الادباء بشراً – وهـــذا امرٌ لا شبهة فيه – أن يكون الاستاذ قد تأثر فكتب ، ولكنه عمّى على القراء التزاماً لسنن الادباء المحدثين عامـــةً الذين لا يفصحون من سرائر قلوبهم ، وإن أفصحوا كنوا ورمزوا أو عمّموا وغمغموا ، كأن الأديب ليس بشراً ، ولا يصحّ أن يتعرض لما يتعرض له سائر البشر من الأهواء والفتن . وان قدّر وتعرض لجرح في قلبه فهو من المبتلين الذين يجب عليهم أن يستتروا حتى يبرأوا ، دون أن يعلم الناسُ من أمرهم شيئاً .

أحقاً – عبادَ الله – أن الأدباء ليسوا بشراً ؟ أحقاً انهم في منجى عن مرمى العيون القاتلة ؟ ان كان ذلك كذلك فلنحكم على الأدب الحديث أنه أدب هزيل متكلّف ، بعيد عن التحدث عن سرائر النفوس ، وبعيد عن الكشف عن

خفايا القلوب ، وبعيـد عن تصوير النفس الانسانية وهي تتقلب على مثـل الجمر ، وتشوى كما يشوى لحم الخراف . وأقول اكثر من هذا صادقاً : بعيد عن الادب الحقّ .

وشيء من هذه الأوصاف قد استخلصها النقاد الصادقون مما قرأوا من آثار جُلّ الادباء المحدثين . فقالوا : إنه في عمومه أدب سطحي لا يتغلغل الى أعماق النفس أو حي رخو بعيـد عن تصوير الأحاسيس تصويراً صريحاً صادقاً ، أو متكلف يتلبس شخصيات منتحلة لا وجود لها ، وما الى ذلك من أوصاف .

وليس فيما بين أيدينا من مؤلفات المحدثين مؤلف واحد يصحّ أن نعتبره قطعةً حيّة من قلب مؤلفه ، نرى فيه آثار الدماء ، وطراوة اللحم الغريض ، وحرارة الجسم الحيّ . ولهذا نجد أجود ما أنتجه المحدثون إما اقتباساً عن قصص وأساطير قديمة ، وإما نقلاً عن لغات اجنبية . أما النتاج الشخصي فجيّد في بعض نواحيه ، وجودته جودة نسبية . ولعلّ أبرز عناصره رشاقة الاسلوب أو طرافـة الافكار . وفي القليل منه وصف رائع أو تحليل لعواطف محدودة ساذجة . أمـا العواطف العارمة المضطرمة التي هي لبّ لبـاب الأدب فليست هناك . وأما الوصف الفيّاض المسهب لدقائق التجارب والمحن الروحية والعقد النفسية فليس

هناك كذلك . واذن فعنصرا العواطف والخيال ، القائمان على صدق الشعور وصدق التصوير ، مفقودان ، او يكادان يكونان في حكم المفقودين .

ولمَ ذلك ؟ ألأن الأدباء المحدثين عاجزون ؟ الأنهم غافلون ؟ لا ! لأنهم يريدون أن يجاروا العامة في اعتبارهم الأدباء واصحاب الفكر أناساً فوق البشر ، أو على الأصح ، أناساً ليسوا بشراً . وهذا الاعتبار من آثار البيئة التي تفرض الحياء والتستر والكتمان والزوغان . وحين يجمح قلم الاديب ، وتفلت منه عبارة تكشف عن سريرته ، تلمس أعماق نفسه ، ويتبيّن لك أنها نفس إنسان كسائر الناس تتعرّض للأهواء والفتن ، والجرح والكيّ ، كتلك العبارة التي فلتت في مقال الاستاذ ، ونمّت عن قلبٍ كبير نابض بالحياة .

تصوّر الاستاذ وهو جالس الى فتاة مليحة رشيقة ذات عينين قاتلتين ، يبادلها درساً بدرس ؛ وهو ذلك الرجل الرزين الوقور الجادّ في عمله ؛ الذي يدرس الانجليزية بدافع الرغبة الصادقة فيها ، لا لأداء واجب ، او اكتساب رزق او طمعاً في علامة ... وهو يدرس في سن متقدمة توجب عليه الراحة في اوقات الفراغ ، وتفرض عليه الكثير من الواجبات الثقال . تصوره وكله وعي وانتباه يريد ان يحصل في هذه السويعات اكثر ما يمكن من معرفة الانجليزية الغنية

بآدابها ، وليس عنده منها ولا من غيرها من اللغات الاجنبية زاد يُعينه على التحصيل . فهو يجلس الى معلمته جاداً رزيناً لا يرفع عينه عن الكتاب إلاّ لسؤال يعرض من حينٍ لآخر ، فيرفع به صوته مستجيبا ، وعيناه خجلتان يصوبهما الى وجه معلمته لحظات ثم يردهما الى الكتاب سريعا ، الى حين يسمع الجواب فيتمسمران فيه . وهو في كلّ جلسة يشعر انه امام مخلوق ذي عينين قاتلتين . ولكن ما للعينين قصد الدرس ، وما لهما تفرّغ في هـــذه السويعات ! ويأخذ شعوره بقوة العينين يزداد يوماً بعد يوم ، ولكن يشغله عنهما فهم متزايد للغة اجنبية تفتح له ابواباً جديدة هو في أشدّ الحرص عليهـــا والحاجة اليها . فقلبه وعقله ينموان ويتصارعان بقوة واحدة . ولذلك يظلّ شعوره معتدلاً .

وفجأة يقع بصر معلمته على حرف عينٍ مقبل من بعيد فتلتاع وتضطرب وتخشى ان تُسيء النطق امام تلميذهـــا ومعلمها ، وقد نبهها الى صحة نطقه مراراً ، فيرميها بالغفلة او الكسل . فيخطر ببالها ان تعتذر لتنجو من هـــذه الازمة ، فتقول : يا سيدي ، ان عينكم تقتلني ... وما يكاد الاستاذ يسمع هـــذا الاعتذار حتى يرفع بصره عن الكتاب ويصوبه الى وجه تلميذته ومعلمته ، فيقع بصره على عينٍ زرقاء اشدّ قتلاً من هذه العين السوداء ، ويحاول

ان يتكلم ولكنه يُشغل بالتحدث الى نفسه بتلك العبارة الموجزة السريعة « وعينكم ايضاً تقتلني » . ولكنه لا يُطيل التحدث الى نفسه خشية ان تكشف معلمته سريرة نفسه ، فيطمئنها ويهوّن عليها ، ويتصل الدرسُ بالدرس ، بعد ان اتصلت العينُ بالعين ، والروح بالروح لحظةً أشبه بلمعان البرق في دياجير الظلمات . وتكمن هذه العبارة في نفس الأستاذ كما تكمن جميع الانفعالات في أعماق الادباء المحدثين ، دون ان يجرؤوا على إظهارها او التحدث بها ، الى ان يكتب هذا المقال عن الشيخ الطهطاوي فيذكره حرف الـ U بحرف العين ، وتفلت منه عبارة غاية في القوة في الكشف عن اسارير النفوس ، وفضح اسرار القلوب .

واعتقد ان الاستاذ لم يبرأ بيُسر من سحر العينين . وأظن ظناً يدنو من اليقين انه بفعل تينك العينين كتب ما كتب في الثقافة عن مخطوط « سحر العيون » الذي عثر عليه وهيأ له فرصة مواتية للتحدث عن العيون بلغة غيره من الأدباء . واني موقن انه لو تحدّث بلغته هو لجاء حديثه آيةً في الروعة ، لانه يكون من الفرص القلائل التي يتحدث فيها اديب محدث عن اسرار القلب . ولكن تلك الستائر التي تفرضها البيئة الحييّة حالت دون الكشف عن مكنون القلوب وصادق الأحاسيس .

فمتى يا تُرى تُمزّق تلك الستائر ، ويبدو الأدباء لقرائهم بشراً ، فينبض ادبهم بالحياة ، كما نبضت عبارة الأستاذ حفظه الله * ؟

* رد الاستاذ احمد امين بك على هذا البحث بمقال رائع عنوانه « تقدير الجمال » نشر في مجلة الثقافة في سنتها الخامسة العدد ٢٣٩ ص ٧١١ ، فارجع اليه إن شئت ان تعرف صدى هذا البحث في نفسه .

المقالة في الأدب العربي الحديث

•

يحدوني على معالجة هذا الموضوع سببان . الأول أهمية المقالة في الأدب العربيّ الحديث . فهي اليوم الوسيلة الأولى للتعبير عن الأدب والثقافة وما يتصل بهما . ومن جهة أخرى فقد نسخت المقالة نوعين من أنواع الكتابة الشبيهة بها ، هما « الرسالة » و « المقامة » اللتان ظهرتا في الأدب المنثور القديم . وربما ضامت المقالةُ ايضاً — الى حدّ كبير — القصيدة . فبعض الأدباء الموهوبين الذين يجولون في ميداني الشعر والنثر يؤثرون استعمال النثر على الشعر ، وتلوح على مقالاتهم أمارات الشعر ، حتى يصحّ ان تسمى شعراً منثوراً . ونثت كتّاب كثيرون في البلاد العربية يفوح من نثرهم عبير الشعر . ولو حكم على نثرهم بمقاييس الأدب الحديثة لأدخلوا في زمرة الشعراء وان لم يتكلّفوا نظماً .

يُضاف الى ذلك أن كثيراً من الكتب الحديثة أخلق

بأن تسمى مقالات متصلة من مباحث متماسكة بدليل أن بعضها نشر فصولاً مستقلة ثم جمع فكان كتابا ، أو أنها إن فصل بعضها عن بعض وقدّم وأُخّر فيها لم تُضَم . وهذا برهان قاطع على أن المقالة تعدّت منطقتها المألوفة وحدودها المرسومة الى مناطق أخرى . وظاهر من تاريخ المقالة أنها وليدة الصحافة التي ظهرت في مطلع النهضة الحديثة .

والسبب الثاني لمعالجة هذا الموضوع أن المقالة على شأنها وعظم خطرها في الأدب العربيّ الحديث تبدو هزيلة في كثير من نواحيها . وهي خليقة بالمعالجة لعموم الحاجة اليها ، وشمولها جميع مظاهر الأدب ، حتى الشعر نفسه . فالمقالة – في الواقع – تكاد تكون القالب الرئيسي الذي تُصَبُّ فيه الثقافة والأدب في عصرنا هذا . وبقدر جودتها وقوّتها وعمقها ووضوحها ترتفع في نظر النقاد ، وتقوّم النهضة الفكرية والأدبية الحديثة في البلدان العربية .

وخير طريقة لفحص المقالة وسبر قوة بنائها هو تحليلها الى عناصرها الأولية ، او تلخيصها في نقاط رئيسية . والذين يقتضي عملُهم إجراء مثل هذا التلخيص يكتشفون في المقالة ، على الفور ، انحلالاً يخفى على القارىء العاديّ .

والذين ألفوا قراءة المقالات في اللغات الأوربية يرون

ان أظهر خصائصها بناؤها الهندسي المحكم الأجزاء ، ويعلمون أن الكاتب لا بُدّ له قبل الاقدام على سبك مقالتـــه في قالبها من أن يقيم لها بناء مصغّراً مؤلفاً من النقاط الكبرى والصغرى التي تنتظمها المقالة . ولو جاز التشبيه لقلنا إن المقـــالة عندهم ـ وكذلك حال القصة والقصيدة والقطعة الموسيقية ـ أشبه ببيت يتألف من غرف موضوعة عـــلى طراز ما ، يقرّره المهندس وفق رغبة صاحب البيت وطبيعة الأرض التي يُشاد عليه . ولذلك يمكن أن تؤخذ صورة متدرجة في الصغر لهـذا البيت ، حتى تنتهي الى الخطوط الاولية التي رسمها المهندس . وإهمال الرسم الهندسي ، أو حتى اعتباره ثانوياً في بناء المقالة ، يجعل المقام الأول للألفاظ ، فتصبح الاناقة اللفظية والمحسّنات البديعية والخيـال البياني جوهراً ، والأفكار والحقائق المجموعة بكدّ الذهن عرضاً مبعثراً في ثنايا الالفاظ بعثرةَ قبضةٍ من الدرّ في كيس من الرمـــل .

والواقع أن الكاتب الذي يتكىء على ذخيرته اللفظية ويجعلها قوام مقالته ، يترك للألفاظ أن تملي عليه ما تريد ، فتجرّ اللفظةُ لفظة ، والسجعةُ سجعة ، والعبارةُ عبارة ، وهكذا حتى تصبح الجملُ سطوراً من الحشائش المصفّفة لا حياة فيها ولا طائل تحتها . وهذا المنحى في المقالة الحديثة قلّ

شأنه ـ لحسن الحظ ـ ولكن ما تزال الألفاظ تتحكم في موضوع الكاتب الذي يهمل الرسمَ الهندسيّ ، ويستخف بأمر آخر على جانب كبير من الشأن في المقالة هو الوقت . فالكاتب الذي لا يُقيم وزناً لوقت القارىء ، بل لوقت كلّ من له علاقة بإعداد مقالته للنشر ، من جامع حروف ، وبائع ورق ، وصاحب صحيفة ، يُسرف في كلماته ويجعل من قطعة من المطاط الشفّاف كرةً كبيرة الحجم ، كلّ ما فيها هواء . أليست براعة الكاتب في عرضِ أكبر مقدار من الفكر في اقلّ مقدارٍ من اللفظ ، دون ضيم للجمال البياني ؟ هذا ـ على الاقل ـ مذهب هذا العصر الذي يدخل الاقتصاد في كل مرفق من مرافق الحياة .

ثم لنلتفت الى الرسم الهندسي من ناحية إيجابية ولنسأل : ماذا يستفيد الكاتب من تجشّم مشقة لا شكّ في أنها كبيرة ؟ وهل هناك شيء أشقّ على الكاتب من تلمّس ذرّات المادة من أعماق الفكر أو خبايا المجتمع أو اسرار الوجدان ، ثم التأليف بينها وعرضها أحسن ما يكون العرض ؟ لعمري ليس شيء أجهد لروح الكاتب من هذه العملية . ولكنها هي كلّ شيء في الكتابة . وخير لمن لا يطيقها أن ينصرف عن الكتابة الى صنعة اخرى أيسر على نفسه . وهذه العملية تجعل لحقائق الفكر والنفس المقام الاول .

ايّ أبلغ في ايصال الحقيقة الى القارىء : وصفها أم عرضها بالذات ؟ واي ابلغ في الدلالة على حال من احوال المجتمع : وصفه بصفحات أم إبرازه بأرقام وحقائق واقعية مشاهدة ؟ لا شك في أن الطبيب الذي يعرض صورة الجراثيم أبلغ من زميله الذي يصف المرض ، وان الخريطة أبين في الدلالة على مواقع البلدان من المعجم الجغرافي .

وواضع الرسم الهندسي للمقالة ينساق بطبيعة الحال الى اختيار الكلمات ذوات الدلالات والقيم المحدودة ليبرز البناء واضحاً . وهنا يبدو في مقالتنا ضعف آخر لا يخفى على الفاحص المدقق . وهو ان الكاتب كثيراً ما يهمل معنى من المعاني لأن اللفظة التي تعبر عنه إما عامية وإما غير مألوفة في كتب اللغة . ولو عُني الكاتب بالفكرة اولاً لضحّى قليلاً من هذه الاعتبارات اللفظية . وهذه قضية من القضايا اللغوية التي تشغل علماء اللغة في هذا العصر . وفقدان مفردات اللغة المعبّرة عن مرافق الحياة ، صغيرها وكبيرها ، ما جدّ منها في العصور الحديثة كالآلات واللباس والآنية وما اليها ، وما طوته عصور التدلي في المؤلفات العربية التي فقدت أو لم تطبع ، يترك في المقالة ثغرة لا بدّ من سدّها .

ولا بدّ قبل الختام من أن أذكر ان المقالة عندنا لا

تزال في دور التكوّن ، وأنهـا بالنسبة الى اختها المقالة الأوربية صغيرة السن . وليس من الانصاف أن نوازنها بها أو أن نقيسها عليها . ولكن عرض هذا البحث مما يعجّل نموّها ويدعو الى سدّ الثغرات فيها .

ولا ريب في أن بين كتّاب المقالة المحدثين كتاباً أدركوا قيمة الرسم الهندسي للمقالة فالتزموه وأعدوا له ما يلزمه من ألفاظ منتخلة وتعابير واضحة . ويطول المقام لو عددت اسماءهم . ولكني لن أنسى مقالات بلغت حداً كبيراً من التوفيق اذكر منها على سبيل المثال مقالات للدكتور أحمد زكي بك نشرها في مجلة الثقافة بعنوان « الأرض التي عليها الروسيا » و « الأرض التي عليها اليابان » ، ومقالات في موضوعات مختلفة للأستاذ ساطع الحصري . وهناك كتاب غيرهما يصحّ أن نعتبرهم جميعاً طلائع البناة للمقالة العربية المنشودة .

صناعة النقد

في الادب العربي الحديث

•

يقبل العالم العربي على نهضة محمودة في التأليف ، مرجوة النمو والازدهار في المستقبل ، حتى تلحق بمثيلاتها في البلدان الاوروبية .

وقد قيل ان مطابع مصر تخرج كل يوم كتاباً . ومن المتوقع في المستقبل ان تخرج كل يوم بضعة كتب . وإن أضيف الى ذلك نشاط سائر البلدان العربية كالعراق وسوريا ولبنان وفلسطين وشمال افريقيا ، آمنّا أنا مقبلون على نهضة ثقافية عظيمة النتائج .

ومن الخير ان يبذل الجهد كله في تنشيط التأليف ، وتشجيع المؤلفين ، وتوجيههم برفق الى ما يحتاج اليه سواد القراء من علم وادب ، كي يؤدوا الرسالة على احسن وجه . ونحب ان نصرّح بمسألة أشبه بمرض خفي يشعر به المريض دون ان يعرف حقيقته . ذلك ان الناس عادة يستكبرون

البدايات ، ويتنكرون لها وان كانت تنطوي على خير ظاهر . وقد يكون ذلك من آثار البداوة او العصبيّة او الفردية التي هي دور طبيعي من ادوار حياة الأمم .

فاذا ظهر في الناس كاتب حَوقلوا وتعوّذوا ولم يصدقوا ان هذا المرء الذي يسير معهم ويعاشرهم ويحاكيهم في جميع المظاهر يمكن ان يكون كاتباً حقاً . وكذلك الحال إن ظهر بينهم شاعر او خطيب او أديب . ولذلك يسلّطون على المؤلف المسكين ألسنتهم محاولين ان يمحوا ما ألف سطراً سطراً ، وكلمة كلمة ...

هذه حقيقة لا يُمارى فيها . ولكنها ، كما قلنا ، ظاهرة طبيعية لدور من الادوار . فاذا ما كثر التأليف ، اختفت هذه الظاهرة وأخذ الناس يقابلون الكاتب الجديد بالفرح والاستبشار ، او على الاقل ، بما يستحق من الترحاب .

ولكن هذه الظاهرة لا يجوز تركها تبثّ التخذيل والتثبيط الى ان تختفي من تلقاء نفسها . فطلائع المؤلفين يجب ان يضاعف لهم الثواب ، لا لخيرهم هم فحسب ، بل لخير الاجيال التي تعقبهم . لا شك في ان العارض سيزول . ولكن زواله يجب ان يتم في اقصر وقت ، لتقليل خطره وتخفيف وطأته .

ومن يتولى هذا العمل ؟ يتولاه النقاد الذين يظهرون

مع المؤلفين في وقت واحد . فيقضون ببراعة نقدهم ، ورجاحة عقلهم ، وشجاعتهم ، وعدالتهم ، على تلك الظاهرة التي تطغى عادةً على فئات معرضة للفتنة والهوى .

فالنقاد يمكنهم ان يؤدوا خدمة عظيمة للمؤلفين ، او على الاصح ، لحياة الامة العقلية التي هي أجلّ حيواتها واعظمها واخلدها على الزمن .

ولكن لا يصح ان يتولى النقد كل شخص تحدّثه نفسه انه بلغ مرتبة العدالة المطلقة والعلم الواسع والاشراف على الحركة الفكرية والتوجيه لمختلف تياراتها . فالناقد يجب ان تتوافر فيه شروط كي يستأهل هذه المكانة الممتازة .

وأول هذه الشروط وأهمها ان يكون الناقد في منزلة يشرف منها على المنقود ، لا أن ينظر اليه من أسفل أو من جانب . وأعني بذلك أن يكون متخصصاً ومتبحراً في موضوع الكتاب الذي ينقده ، لا أن يكون من المؤلف في منزلة التلميذ . فان كان الكتاب في التاريخ وجب أن يتفرّغ لنقده مؤرخ ، وان كان في مبحث علمي وجب أن يتفرّغ له عالم واسع الاطلاع على ذلك المبحث ، وإن كان في الادب فأديب وهكذا .

وليس ثمة أدنى ريب في أنه كلما كان الناقد متبحراً في الموضوع جاء فهمه للكتاب أتم وأوفى ، وكان في مركز

يؤهله لأن يصدر حكماً شاملاً لحسنات الكتاب وسيئاته .

وانه لمن الجور أن يتصدى لنقد كتاب شخص متطفل على موضوعه ، همه أن يُشهر على حساب المؤلف ، أو ينتحل مكانة « الاستذة » ممن لا يلحق به . وقديماً كان الشويعرون يتصدّون لهجاء الشعراء كي يلحقوا بهم . ولكن الشعراء الاذكيـــاء كانوا يفطنون لهذا الغرض فيقتلون الشويعر بالأعراض عنه .

ولكن خصلة المعرفة لها آفة تجعل الجهل خيراً منها . تلك هي الهوى . فالناقد إذا كان مغرضاً قلب الحقائق رأساً على عقب ، وجعل من الحسنة سيئة ، ومن السيئة حسنة ، ولا سيما إن كان عالماً في الموضوع . فهو لا يعـدم وسيلة للنيل من الكاتب . ويجعل همه الاحتيال على العلم للتشبيه على القراء ، وتشويه الحقائق .

ونقد الجاهل خير من نقد العالم المغرض . إذ أن الجاهل لا يلبث أن يكشف نفسه ويجني عليها . اما العالم فانـــه يستعين بواسع علمه لستر خبث طوّيته . ويجوز قوله عـلى الكثيرين ولا سيما متوسطي المعرفة .

حدثني صديق قال : « كنا في مجلس نتذاكر المؤلفات الحديثة . فتصدى أحدنا لكتاب زاعماً أنه مسروق من مؤلف سابق . فقال له أحدنا : ولكنّ من تزعم أنـــه سارق سبق

في التأليف ذلك الذي تزعم أنه مسروق . فأنكر المتصدّي ذلك . فقام احدنا واحضر الكتابين وأطلعه على التاريخين . فلما رأى المتصدّي ذلك راح يتهجم على الكتاب من ناحية أخرى . فعلمنا أنه ناقد مغرض يحتال للطعن من كل سبيل . »

ومن ناحية ثانية يصعب على عامة القراء إدراك طويّة الناقد المغرض . فيدس لهم السم في الدسم مدلساً عليهم بالبحث العلمي وحرية الفكر .

ولهذا يجب أن يبذل كل جهد للحيلولة دون النقد المغرض . وهذا أمر عسير . ولكنه ممكن في بعض الأحيان . وما لا يُدرك كله لا يترك جلّه .

وعلى ذلك فالمعرفة الجيدة والعدالة شرطان لا بدّ منهما للناقد . ولا يغني احدهما عن الآخر ، كما لا يغني عنهما شيء .

على أن هناك صفات أخرى يجمل بالناقد أن يتصف بها . منها أن يكون ملماً بأصول النقد لا متخبطاً يطوّح بنفسه في بيداء مترامية الاطراف . فللنقد قواعد لا بد من أن تراعى . منها ما يتصل بالنقد العلمي . وفي ذلك كتب تغني عن الاسهاب . مثال ذلك أن لا يطلب الناقد في الكتاب الأدبي نظريات جديدة . لأن الأدب ليس علماً . وانما الجديد في الأدب هو التعبير ، والتأثرات الشخصية ، والتجارب التي يحصلها الأديب نفسه . على أن الاديب ليس

ملزمـــاً بنهج طريق خاص . فله أن يكتب ؛ وإن أثارت كتابته شعوراً بالجمال ، أو تحليقاً في آفاق علوية ، أو متعة ونشوة ، فهو موفق . وإن لم يثر شيئاً من ذلك فأدبه عادي . أما العالم فمسئول عن المادة . وهو إما مضيف الى العلم جديداً ، وإما مبسّط لنظريات عويصة ، وإمـــا جامع شتات آراء متفرقـة . ولا يحاسب على لغته محاسبة الأديب . لأن اللغة عنده وسيلة ، وعنـــد الأديب جزء من الغاية .

ويكون الناقد جائراً إن قصر نقده على عرض السيئات وحدها ، او المحاسن وحدها . فكل مؤلف مهما عـلا في مرتبة الجودة والاتقان ، لا يمكن أن يبلغ درجة الكمال . ولكن قد ترجح الحسنات على السيئات ، او السيئات على الحسنات . ومن واجب الناقد أن يشير الى الامرين معاً . والمؤلف يكون جيداً إن قلّت سيئاته ويكون رديئاً إن قلت حسناته .

ويقتضي الانصاف أن يحتاط الناقد فلا يأخـــذ بناصية المنقود أخـذ عزيز جبّار ، إلا حين تلزمه الضرورة أن يفعل ذلك . وهذا الموقف يكثر في نقد المؤلفات العلمية ، ويقل في نقد المؤلفات الأدبية . لأن العـــلم محصور في حدود واضحة المعالم ، والأدب غـير محصور . وما ينبغي

ان يكون كذلك . وحين يدخل الادب في دائرة العلم يفقد خصائصه ومزاياه . ولذلك وجب على الناقد الأدبي أن يشير الى أنه يعبّر عن رأيه الخاص ، وان لسائر القراء أن يخالفوه فيما ذهب اليه .

ولهذه العلة ايضاً يلزم الناقد أن يقصر نقده على آرائه هو دون تأثر بآراء غيره ، وإلا جاء نقده أشبه بثوب مُرَقّع ، كل رقعة تنافر الاخرى . وإن شاء الناقد أن يعرض آراء مختلف القراء فعليه أن يشير الى ذلك كيلا يوهم أن له فهم عشرات الناس .

والنقاد بعد هذا يختلفون . فمنهم من يؤثر أن يتخذ جانب الصرامة . ومنهم من يؤثر أن يتخذ جانب اللين . ومنهم من يقف بين بين . ولا ضير من هذا . وإنما الضير كل الضير ان يقسو حيناً ويرق حيناً آخر جرياً وراء الهوى .

وليس في جميع ما ذُكر ما يحدّ من حرية الناقد . فالناقد له ذوقه الخاص وميوله الخاصة . وله ان يقول ما يشاء . ولكن لحرية النقد حدوداً ، هي التي تجعل هذه الصناعة مصونة من العبث والزراية والفوضى . وليس ثمة شك في ان هدف النقد ينقلب رأساً على عقب ، ويصبح النقد ضاراً اكثر منه مفيداً إن تجرّد الناقد من المعرفة

والعدالة او الالمام بأصول النقد ، وما الى ذلك من الشروط التي ذكرنا .

وكما ان التأليف في ذاته عمل صالح ، فكذلك النقد يجب أن يكون عملاً صالحاً . واذا كان التأليف بناءً فيجب ان يكون النقد بناءً ايضاً .

ورب من يقول : هذه شروط مثاليّة لا تتوافر في ناقد . ومن ذا الذي يأخذ نفسه بهذه الشروط ؟ قد يكون الأمر كذلك ، ولكن أليس التأليف الصحيح جهداً وعناء ورياضة شاقّة ؟ بل اذا جاز أن يترخص في التأليف فليس يجوز بحال أن يترخص في النقد .

ومن جهة ثانية نحن في دور بدائي في التأليف . ولذلك نحتاج الى نقاد اخيار تتوافر فيهم تلك الشروط كي ينشّطوا المواهب ويوجهوها ، بل نحن بحاجة الى نقاد يبحثون عن المواهب في كل سطر وكل شطر ، وهم اقرب الناس الى المعرفة ، وابعدهم عن الهوى .

وناقد واحد من هذا الطراز يستطيع أن يُحدث في الحياة الثقافية أحداثاً جليلة . بل يستطيع ان يكون خالقاً . وهذه أبرز صفات صاحب الفن .

هل ظهر في فلسطين أدب وأدباء؟

•

قال لي احد المشتغلين بالدراسات العربية من الاجانب : لقد اردت ان اكتب فصلاً عن الحياة الادبية في فلسطين ، فبحثت هنا وهناك ، فلم أعثر على اديب عربي . فهل معنى ذلك ان فلسطين لم تنتج ادباً في تاريخها القديم والحديث ؟

ولم يكن الرجل يتكلف الهزل ولا الجحود حين وجّه اليّ سؤاله . ولكنه بحث — على ما يظهر — عن كتاب في هذا الموضوع فلم يقف له على اثر ، فتوهم ان تربة هذا الوطن الغالي اقفرت من الادب والادباء ...

ولست اقصد الحشو حين اردف كلمة ادب بأدباء . ولكني اود ان امايز بين الادباء الذين عاشوا في فلسطين والادباء الذين ولدوا فيها ورحلوا عنها .

وظاهر ان فلسطين لم تكن في تاريخها القديم وحدة مستقلة عن شقيقاتها المجاورات . فمنذ الفتح الاسلامي الى العصر العثماني وهي تتصل اتصالاً وثيقاً بقطر من الاقطار

المجاورة . ولذا كان ادباؤنا يتنقلون من قطر الى آخر ، واكثرهم قصد مصر واتخذها وطناً ثانياً حتى عُد من ادبائها .

ولست في سبيل الاحاطة بتاريخ البلاد الادبي . ولكني اشير الى بعض الادباء الذين ظهروا في عصور متعاقبة لأضع امام سائلي الفاضل شواهد صدقٍ على ان التربة الفلسطينية لم تكن مجدبةً في عصر من العصور .

واول من اذكر الكاتب الشاعر ابو الفتح محمود بن الحسين كشاجم الرملي ، نسبةً الى الرملة البيضاء الواقعة قرب مدينة يافا ، المتوفى في حدود سنة ٣٥٠ هـ . وقد قسم ايامه بين مصر والرملة وحلب . وكان شاعراً لابي الهيجاء ولابنه سيف الدولة الحمداني . ومن آثاره المطبوعة ديوان شعر ورسالة طريفة في ادب الندماء ولطائف الظرفاء . ويُعنى احد الفضلاء في بيت المقدس بتحقيق مخطوط له في المصايد * .

ويروى ان كشاجم اقام في مصر مدة فاستطابها ، ثم رحل عنها فكان يتشوق اليها . ثم عاد اليها فقال :

قد كان شوقي الى مصر يؤرقني
فالآن عدت وعادت مصر لي دارا

---

* اخبرني الدكتور اسعد طلس انه نسخ هذا الكتاب في اثناء مقامه في ايران وانه يرجو نشره .

وظهر في غزة شاعر فحل من طبقة المتنبي هو ابو اسحق الغزي المتوفى سنة ٥٢٤ هـ . وقد جاب بلاد الشام والعراق في طلب العلم ، ودرس في المدرسة النظامية في بغداد . ثم قصد المشرق واقام فيه متنقلاً ما بين خراسان وكرمان الى ان ادركته المنية في بلخ وتوفي فيها .

ولأبي اسحق ديوان مخطوط منه نسخ في المكاتب الأوربية ومصر والقسطنطينية . وأطلعني فضيلة الشيخ راغب الطباخ في مدينة حلب على نسخة منه * . ومن العجيب أن يُسرق شعره ويُنسب للشاعر الابيوردي في ديوانه المطبوع ، ويتنبأ هو بذلك في أبيات طريفة يرويها ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٣٦) قال :

قالوا هجرت الشعر ، قلت ضرورة
باب البواعث والدواعي مغلق
خلت الديار فلا كريم يرتجى
منه النوال ولا مليح يُعشق

ومن العجائب أنه لا يُشترى :
ويُخان فيه على الكساد ويُسرق !

وفي كتاب مواسم الادب وآثار العجم والعرب للسيد

---

* علمت أن معالي الأستاذ خليل مردم بك يقتني نسخة من هذا الديوان يعدها للطبع .

جعفر العلوي ، ومختارات سامي باشا البارودي طائفة من شعره.

وله أبيات سائرة تشبه حكم أبي الطيّب منها :

ـ ما مضى فـــات والمؤمّل غيب
ولك الساعـــة التي أنت فيهـــا

ـ وأطيب الارض ما للقلب فيه هوى
سمّ الخياط مع الاحباب مَيْدانُ

ولعلّ أكبر شخصية عرفتها البلاد الفلسطينية شخصية القاضي الفاضل المولود في عسقلان سنة ٥٢٩ هـ . ويحار القلم أيّة ناحية من شخصية هذا الرجل يتناول ؟ أيتناول أدبه ورسائله : يتلقى الملوكُ في كلّ أرض كتبه القادمـــات بالتعظيم

ام يتناول سياسته وفراسته :

تشير على الاسلام منك فراسة لها حزم طبّ واحتراز منجم

أم يتناول عطفه عـلى العلم والعلماء وجمعه الكتب من أقطار الارض ، ومدرسته الفاضليـة التي كانت من أعظم مدارس القاهرة واجلّها ، وأوقافـــه العظيمة على وجوه الخيرات ؟ وحسبه شهادة السلطان صلاح الدين فيه : « لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل » .

ومن طريف ما يروى أنـه زرع في أرض له عُرفت بمنشأة الفاضل عنبا اشتهر حتى ان الباعة كانوا يصيحون بعد وفاته « رحم الله الفاضل ! يا عنب ! » .

وولد في صفد سنة ٦٩٦ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي . وطلب العلم في دمشق فأخذ عن ابن نُباتة وابن سيّد الناس وابن جُماعة والمزيّ . وكان صديقاً للذهبي والسبكي . وقد تولى أمانة السر في بلده صفد ثم في القاهرة فحلب . وتولى في أواخر ايامه وكالة بيت المال في دمشق ، وفيها توفي سنة ٧٦٤ هـ .

وبلغت مؤلفاته خمسمائة مجلد بروايته هو . منها كتابه الضخم النفيس الوافي بالوفيات في ثلاثين مجلداً ؛ ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار ؛ ونكت الهميان في نكت العميان الذي نشره المرحوم احمد زكي باشا ؛ والشعور بالعور * ؛ وديوان الفصحاء وترجمان البلغاء ، والغيث المنسجم في شرح لامية العجم ، الخ . . .

ومن الأدباء الفقهاء شيخ الاسلام شهاب الدين الرملي المتوفى سنة ٨٨١ هـ . وقد أخذ عن القلقشندي في بيت المقدس وأقام في الرملة وبيت المقدس ويافا حيث عمّر برجاً على جانب البحر .

ومنهم ابو اليمن عبد الرحمن بن محمد بن مجير الدين العليمي المولود في بيت المقدس سنة ٨٦٠ هـ ، صاحب « الأنس

---

* رأيت هذا الكتاب في مكتبة صديقي الاستاذ احمد سامح الخالدي في بيت المقدس وأسأل الله ان يكون ناجياً من النهب .

الجليل بتاريخ القدس والخليل » .

ومنهم مرعي بن يوسف الكرمي (نسبة الى طولكرم من قرى نابلس) . وقد طلب العلم في القاهرة صبيّاً ، وتوطنها وتصدر للافتاء في الجامع الأزهر ، ثم تولى المشيخة في جامع السلطان حسن . وهو يجمع بين الفقه والتاريخ والأدب . وترك حوالي سبعين مؤلفاً جلّها مخطوط ، من جملتها ديوان شعر له .

وولد ببيت المقدس سنة ١٢٨١ هـ (١٨٦٤) باحث أديب هو روحي بك بن محمد ياسين الخالدي . وقد طلب العلم في بلاد الشام ثم في الاستانة فباريس . وتولى مناصب سياسية وعلمية عالية . فكان محاضراً في جمعية نشر اللغات الاجنبية في باريس ، وقنصلا جنرالاً للحكومة العثمانية في بوردو ، فنائباً في مجلس المبعوثين في الاستانة .

كان روحي من اوائل من طلب العلم في فرنسا ، ومن زعماء النهضة الحديثة . وقد ترك مصنفات تشهد له بالألمعية وعمق البحث . منها كتاب « علم الأدب عنـــد الافرنج والعرب » الذي تولت نشره دار الهلال في القاهرة ؛ و « العالم الاسلامي » ؛ و « الانقلاب العثماني » ؛ و « رحلة الى الاندلس » ؛ ورسالة في ترجمة برتلو العالم الكيمياوي ؛ ورسالة في علم الكيمياء عند العرب وكيف انتقـــل الى الافرنج ؛ وتاريخ الشرق

وامرائه ، وكتاب علم الالسنة في مقابلة اللغـــات ، وهو كتاب نفيس في بضعة مجلدات * .

ومن أسرة الخالدي الرحالة الباحث الشيخ خليل الخالدي الذي توفي في القاهرة قبل بضع سنوات . وما تزال مجالسه وأحاديثه ماثلة في أذهان علماء البلاد العربية وادبائها . وقد وقف الشيخ حياته على جمع المخطوطات العربية ومراجعتها والتحدث عن نوادرها في مجالس العالم في مصر والشام .

وعرفت البلاد في تاريخها الحديث عدداً من الشعراء منهم الشيخ علي الريماوي (نسبة الى قرية بيت ريما) ؛ والشيخ ابو الاقبال اليعقوبي اليافي الذي عرفته مصر لكثرة زيارته لها ؛ والشاعر الشاب ابراهيم عبد الفتاح طوقان من مدينة نابلس .

ولعلّ ابراهيم – رحمه الله – تفرّد بانقطاعه الى الشعر في حين كان سائر الشعراء فقهاء وشعراء في وقت واحد .

ولد ابراهيم في مدينة نابلس سنة ١٩٠٥ . ودرس في الجامعة الاميركية في بيروت ودرّس فيها مدّة ، ثم تولى إدارة « مصلحة الاذاعة الفلسطينية » منذ تأسيسها إلى قبيل وفاته سنة ١٩٤١ .

---

* رأيت هذا الكتاب ايضاً في مكتبة صديقي الاستاذ احمد سامح الخالدي في بيت المقدس وأسأل الله أن يكون ناجياً من النهب .

كان ابراهيم شاعراً مطبوعاً ، لم يقل الشعر رغبةً أو رهبة ، وانما قاله وهو طالب في المدرسة ، ثم في أثناء عمله في الجامعة والاذاعة ، وفي فترة بين هذين العملين كان فيها طليقاً من قيود « الوظيفة » . وكان شعره من وحي النفس ، يعبّر عن انفعالاته النفسية تعبيراً صريحاً صادقاً . يقول الشعر الوطني في المناسبات السياسية ، ويقول الشعر الهجائي في بعض المناسبات تفريجاً عن غم أو كرب ، ويقول الشعر الغزلي إجابة لدواعي عواطف أصيلة .

وأظهر ما تميّز به شعره السلاسة والعذوبة شأن الشعراء المفطورين . وكان رقيق الحاشية ، دمث الأخلاق ، دقيق الاحساس ، فاجتمع له أولاً الملكة الشعرية ، وثانياً النفس المهيأة للانفعالات الخارجية ، وثالثاً الأسلوب القوي المطاوع ، ورابعاً الغنى عن الناس والترفع عن مداهنتهم ؛ فبلغ شعره الغاية في التعبير عن صادق العواطف . ولو مدّ الله في أجله لوصل شعره بشعر عمر بن أبي ربيعة وعبيد الله بن قيس الرقيّات . ولكن المنية اخترمته وهو في ريعان الشباب ، فانقطع بوفاته نسب أدبي يرجع الى القرون الاسلامية الأولى .

هذه لمحة في تاريخ بعض الشخصيات التي عرفتها البلاد الفلسطينية . وهو شاهد على أن البلاد لم تكن عقيمة في دور من أدوار حياتها .

وأود قبل الختام أن أشير الى أمرين : الاول ان هذه اللمحة لا يصحّ ان تحمل على أنها من نوازع الاقليمية . والثاني أن فضل مصر على أكثر من ذكرت أوضح من أن يحتاج الى زيادة بيان . ولا ريب في ان المعوّل بعد الملكة على التثقيف والتوجيه والبيئة الملهمة * .

---

* أعد المؤلف دراسات وافية تناولت من ورد ذكرهم في هذا المبحث وكثيرين غيرهم لتنشر في كتاب ، ولكن جميع هذه الدراسات ظلت في مكانها في بيت المقدس صانها الله .

أساتيذ واساليب

•

قال مرة أحد المشتغلين بالتربية والتعليم : لست واثقاً من مدى الفائدة التي يقدمها علمُ النفس الى التعليم . وأغلب الظن أن المشتغلين بهذا العلم يغالون في تقويم هذه الفائدة . وما يزال علمُ النفس ، في رأيي ، مترجرجاً بعيداً عن الاستقرار . وحين سُئل علام تعوّل إذن ، أجاب : أُعوّل أولاً على التجربة ، فالمعلّم الناجح يستوحي من تجاربه أضعاف ما يستوحي من ذاك العلم . ولذا أكره تحديد الأساليب في التعليم وأوثر أن يذهب كلُّ معلم المذهبَ الذي يروقه على ان لا يكون في ذلك تجاوز للحدود المعقولة .

ذكّرني هذا الرأي بمثل في اللغة التركية مؤداه « معلم قديم وكتاب جديد » . اي ان خير ما ينهض بالمدرسة أن يكون المعلم مجرّباً واسع الاختبار ، وان يكون الكتاب الذي بين ايدي الطلاب حديثاً يعرض المادة المقرّرة بأسلوب مشوّق .

وسواء اصحّ هـذا الرأي ام لم يصحّ فلا شكّ في ان الاختبار ينبوع من أفضل الينابيع التي يستقي منهـا المعلم الأساليب . ويظلّ القول إن المعلم القديم المجرّب افضل من المعلم الجديـد قليل التجربة قولاً صائبا . والمهمّ ، على كل حال ، ان يتحلى المعلمُ القديم بالمرونة ومتابعة الدرس والاستفادة من كل جديد .

*

لقد تيسّر لي الدرسُ على عدد من المعلمين والأساتذة ذوي الشهرة في موضوعاتهم . وحين يمرّ احدُهم بالخاطر يُقرن بالأسلوب الذي اتبعه في التدريس والتوجيه . ويمكن في هذه المرحلة من العمر تحديد الفائدة او الفوائد التي رسخت في النفس من هذا الاستاذ او ذاك ، بل يمكن ان تردّ الى كلّ الناحية التي برّز فيها والأثر الذي خلّفه وراءه . وإن لم تجمع من هذا العرض التاريخي فوائد ذات قيمة في الاساليب ، وخاصة في اسلوب تدريس اللغة العربية ، فلَنرَ فيه صوراً لشخصيات مختلفة بعضها اصبح جزءاً من التاريخ .

وليس القصد العودة الى زمن الطفولة . فذاك عهد بعيد ، واثره غير عميق — من الناحية المقصودة من هذا البحث — كما انه لا حاجة الى الوقوف عند كلّ معلم . وسنقتصر على نفر تميّز بميزة خاصة ، عارضين الاسماء بالترتيب التاريخيّ

دون تمييز او تفاضل .

*

تولى المرحوم الاستاذ محمد إسعاف النشاشيبي تدريس العربية في المدرسة الرشيدية في بيت المقدس في بـــدء الاحتلال البريطاني . ولم يكن النشاشيبي معلماً بالمعنى الصحيح إذ لم يتخرّج في دار المعلمين ولم يُحصّل علمه بانتظام بل حصّله بجدّه وعلى طريقته هو الخاصة . ومع ذلك فقد غادر في تلاميذه اثراً لن يُمحى لاسباب ثلاثة : الاول شخصيته التي ظلّ متميزاً بها دون سائر ادباء عصره . والثاني حماسته للعربية حماسة تكاد تكون منقطعة النظير . والثالث تعمقه في درس اللغة – ادباً وقواعد – هوى وطبعـــاً لا صنعة وتكلفاً . ولذلـــك لم يسر على منهج معين ولم يتقيّد ببرنامج موضوع بل كان هدفه تحبيب اللغـــة الى الطلاب وتشويقهم إلى ادمان القراءة في كتب الادب القديم ، فحقق هدفه في اكثر الذين تتلمذوا عليه حتى اولئك الذين كان ميلهم الى العربية ضعيفاً . والحق ان حماسة المعـــلم تؤثر تأثيراً قوياً في الطلاب لا سيما ان رُزق الآلة المؤدية الى نقل حماسته اليهم كقوة البيان ومتابعة التوجيه والشعور بأن التعليم احتساب لوجه الله لا مهنة للارتزاق .

ولا اذكر ان النشاشيبي عيّن حصصـــاً لمختلف

الموضوعات . فقد كان يدخل الصف متأبطاً كتابه فيدرك الطلاب المقصود ويفتحون كتبهم المطلوبة . وكانوا ملزمين بحمل كتب اللغة جميعها ليكونوا متأهبين لتلبية رغبته . وكانت له نظرية خاصة وهي ان علوم اللغة جميعها متداخلة ، والغرض منها تذوّق الادب او ان يصبح الطالبُ اديباً . وهذا مذهب لا يتفق فيه جميع المعلمين المحدثين . اذ ان اكثر المعلمين اليوم على ان اللغة وسيلة لفهم المقروء والتعبير الدقيق عن الافكار . ومن المعلمين من يُقصر على ما هو دون ذلك ذهاباً الى ان جل الطلاب - او عدداً كبيراً منهم على الاقل - يطلب صناعة لا تحتاج الى بيان ، وان نسبة من يدخل البيان في صناعاتهم ضئيلة .

اما وسيلته الرئيسية فكانت تدريس كتب الادب القديم وتفريع سائر موضوعات اللغة عنها . فكان يجمع نصوصاً شعرية ويمليها على الطلاب بقراءته الخاصة ثم يعقب بشروح لغوية كشروح القدامى مدخلاً الشرح اللغوي والبياني حيثما يرى ذلك . وكان جلّ اعتماده على كتاب الحماسة لابي تمام وبعض القصائد والمقطوعات الشبيهة به من حيث المتانة . وكان يُغري الطلاب بحفظ المنتخبات وقراءتها على نمط قراءته . ولم يُعيّن في المنثور كتاباً خاصاً . ولكنه كان يجمع نُتفاً اشبه بالنوادر من الكامل للمبرّد والبيان والتبيين

للجاحظ والعقد لابن عبد ربه . وفي وقت ما اقرأ القرآن الكريم معتمداً على تفسير الزمخشري لمنحاه اللغوي . ولم يتعرض قط للتفسير الديني . وحين رأى ضرورة تدريس القواعد جمع شواهد من المفصّل للزمخشري وأملاها التزاماً لمذهبه في ربط القواعد بالنصوص . ولم يُعْنَ بالانشاء الا نادراً - وربما تملّحاً ومداعبة لبعض المبرّزين من طلابه - اذ كان رأيه ان الاسلوب يعتمد على ادمان القراءة في كتب الادب القديم ، ولا بد من مرور وقت قبل ان يصبح للقارىء أسلوب عربي فصيح ؛ وربما يمضي اكثر العمر قبل ان ينضج الاسلوب ، وعندئذ على المرء ان يُدرك - ولو متأخراً - انه لن يكون كاتباً . وكان من رأيه صرف وقت الدرس كله في القراءة وحفظ عيون الادب ، ومن ثمّ ان طاوعت السليقة وفاضت القريحة جاء الاسلوب الذاتي . وكان هذا الاسلوب الذاتي أحبّ شيء اليه . وكان ينعت اساليب الكتاب المقلدين - وما اكثرهم في نظره - بالانتحال ، فيقول مستشهداً : لو قلت لألفاظ فلان عودي من حيث جئت لما بقي في مقاله شيء . وقد تشدد هو في اسلوبه تشدّداً جاوز الحدّ ، وكانت اقواله ترصّع بالنوادر والشواهد المقتبسة حتى لا يبقى له من الكلام الا اقلّه . وحين يتستر على القراء بالتواقيع المستعارة ينطلق مع

سجيته ويقل منقوله .

والحق أنا نظلمه كثيراً إن عددناه في مرتبة المعلمين وأخذناه بالاحكام الحديثة . فقد كان اديباً قبل ان يكون معلماً . وكان فهمه الادب على نحو خاص يلتئم مع مزاجه ودراسته الذاتية العتيقة . وكان تعليمه أشبه بالتأديب المعروف في العصور العربية القديمة . ومع ذلك فقد بلغ تأثيره في طلابه حداً لا يبلغه كثير من المعلمين المحدثين . وما زال طلابه الى اليوم يروون الشواهد والمختارات التي كان يمليها عليهم . ذلك انه كان صاحب مذهب في التعليم آمن به واخلص له مع غيرة متناهية وحماسة عظيمة وعلم واسع . وان حوكم بالنتائج لانستطيع ان نزعم انه اخفق ، مع أنا نخالفه في كثير من الاصول والفروع .

*

ودرّس العربية في الكلية الانجليزية في بيت المقدس المرحوم الاستاذ نخلة زريق . وكان يومئذ استاذاً قديماً ذا شخصية بارزة وطلعة مهيبة وهندام عربي جذّاب واعتداد بالنفس وعلم غزير وحماسة للّغة تتجلّى في تدريسه ومجالسه الممتعة . وهو شبيه بالنشاشيبي من جملة نواح ، ولكنه يمتاز بانه معلم أكثر منه اديباً ، والنشاشيبي أديب أكثر منه معلماً . وقد درّس في لبنان وعكا وبيت المقدس

وتولى مدةً الاشراف على قسم المعلمين في مدرسة صهيون . وتخرّج على يديه عدد كبير من الاساتذة والمربين . وحين تولى التدريس في الكلية الانجليزية كان شيخاً طاعناً في السن ممعوداً فزاد ذلك من جلاله وأورثه في الوقت نفسه حدة جارحة مشوبة بتهكم لاذع .

كان زريق يسير في تدريسه على اسلوب القدماء ، يختار النصوص الأدبية ويمليها على الطلاب بفصاحة لسان وعذوبة نطق وإنشاد لا اعرف احلى منه . وكانت أماليه من الأدب العربيّ القديم ، غير متقيد بكتاب أو عصر ، وكانت تبلغ من الروعة حدّاً يهزّ المشاعر . ومن هذه النصوص يتفرّع الدرس ، فينتقل من القواعد الى الاملاء الى الصرف فالنحو فالبيان حسب مقتضى الحال ومستوى الطلاب . وكان يكثر الاستشهاد من الشعر والقرآن الكريم اعتقاداً منه ان طلابه المسلمين يستظهرون القرآن . وكانت هذه الدراسة الأدبية تقع احياناً في حصص اللغة واحياناً في غير حصصها ، إذ كثيراً ما كان يجمع الطلاب من الغرف وساحة الكلية ويضمهم في غرفة ثم يُلقي الدرس ساعة او ساعتين لوجه الله والعلم .

أما القواعد فكان معوّله فيها على كتاب فصل الخطاب للشيخ ناصيف اليازجي ذي المتن الموجز والحواشي الجامعة .

ولم يُعوّل على كتاب آخر في هذا الموضوع او غيره . وكان منهجه ان يقرأ النص ثم يشرحه مكثراً من الشواهد من عيون الادب . وكانت عنايته بالصرف مقدمة على عنايته بالنحو . وهو محقّ في هذا . لان العناية بالنحو وخاصة الاعراب كانت تطغى على ما عداه في حلقات الشيوخ التي كان يرتادها . ولذا كان يلاحظ هذا النقص في الطلاب فيشبعهم صرفاً .

أما الانشاء فكانت عنايته به أشدّ من عناية صديقه النشاشيبي دون تشدّد وتحرّج ، فحَسْبُ الطالب أن يُحسن التعبير بأسلوب سهل دون خطأ . وإذ كانت صحته وشيخوخته لا تعينان على التصحيح في البيت فقد كان يُقرىء طالباً موضوعه في الصف ويُعالج أخطاءه اللغوية غير متعرض للافكار والأسلوب إلاّ نادراً . وفي أثناء هذه المعالجة يتبسّط ويتندر ويستطرد ما شاء . واذكر أن طالباً مصرياً قرأ مرة مخرجاً الجيم من الحنك – كما هو نطقها في اللهجة المصرية – فغضب الاستاذ وزجره . ولكن الطالب لم يستطع التغلب على لهجته . وهنا ثار قائلاً : قل لي – يا هذا – كيف تنطق كلمة بونجور الفرنسية ؟ فأجاب الطالب : أنطقها بونجور – بالجيم الشامية – فقال له فوراً : سبحان الله ! كيف تُحسن نطق الجيم المعطشة – الشامية – في تلك

الكلمة الفرنسية ولا تحسنها في العربيـــة ؟ فافحم الطالب وصار يتحسّب في قراءته .

ودرج على إلقاء أحاديث عامة صباح كل جمعة . ولم يكن الطلابُ يتشوقون شيئاً كتشوقهم أحاديثه هذه . فقد كان يفتنهم بعباراته الرصينة ونصائحه ونوادره . وكان يقصد تغوير الروح القومية في نفوسهم وترغيبهم في لغتهم وأدبهم وبث الكرامة والكبرياء أيام كانت نفوسهم تفور بالحماسة . ولا أعرف تلميذاً من تلاميذه إلاّ ذاكراً إياه بالخير مثنياً على غيرته وعلمه مغتفراً تنكيته وتبكيته على قسوتهما أحياناً .

*

وكان الاستاذ رَسِل جُوْلت - الذي تولى العمادة فيما بعد - يدّرس علم الأخلاق Ethics في الجامعة الاميركية في القاهرة . كان يعرض مبادىء الاخلاق والدين عنـــد أصحاب المذاهب الدينيـــة من كنفوشيوس الى المصلحين المحدثين . ولم يكن يعوّل على كتاب بل كان منهاجه أن يعرض المادة ثم يناقش الطلاب فيها ويكلفهم كتابة مباحث في نقدها بحرية وصراحة . وكانت الفائدة تأتي من هـــذا النقد ، إذ كان يناقش صاحب كل مبحث محاولا أن يوسع آفـــاق تفكيره ، وأن يعوّده وزن الآراء وتركيزها والوصول الى نتائج سليمة . وكان أحب شيء اليه أن يرى

أصالة التفكير والاتجاه العلمي دون إسراف . ولم أره غاضباً او معنّفاً لاختلاف الآراء . بل كان يسرّه أن يتمسك الباحث برأيه ويدافع عنه بالحجة وان جاء مناقضاً لرأيه الذي عرضه في الدرس . ولم أره متعصباً لمذهب من المذاهب او محاولاً الطعن في أحدها أو متعرضاً للعقائد الدينية بسوء ، وكان في صفه المسلم والمسيحي والموسوي ، وهو منحى يحتاج الى حصافة وحلم وسعة ادراك . وكان الرجل متحلياً بهذه الصفات أصالة لا تكلفاً .

وجاء هذا الدرس في وقت كانت فيه مواهب الطلاب كالبراعم المشرفة على التفتح ، فكان اشبه بالطلّ في إبان الربيع . ولا غرو إن جنى منه الطلاب فوائد عزّ نظيرها في سائر الدروس والمحاضرات .

وتتجلى قيمة هذا التوجيه – او الانماء العقلي – لمن درس مثلي في اعقاب العهد العثماني في مدارس لا اثر فيها للنشاط الفكري ، وفي مدارس الفرير المشهورة بنظمها القاسية وحدّها للاجتهاد الذاتي والحرية الفكرية مع امتيازها بتغزير المعارف . ولسنا في سبيل التفاضل بين النظم المدرسية في مختلف البيئات . فالمنصف لا يسعه إلا الاعتراف بأن لكل نظام محاسنه ومساوئه . ولكن مالا بُد من تقييده ان الاستاذ جولت نحا في تعليمه منحى كانت فائدته – من

حيث التوجيه وبناء التفكير السليم وتنمية الحرية الفكرية — فوق كلّ فائدة . فالمعلومات التي يُحصّلها الطالبُ في المدرسة لا تُقصد لذاتها بل لنتائجها في تسديد الفكر وتنميته . ولا أحد يستطيع ان يصون معلوماته في وعائها مع مرّ الزمن . والمعوّل عليه في التعليم الرواسب الذهنية والنفسية المكوّنة للشخصية والمعينة على اكتساب المعارف وتنسيقها — في مرحلة ما بعد المدرسة — وعرضها عند الحاجة بدقة ووضوح . وقد بلغ الاستاذ جولت في الجامعة أبعد شأو في هـذا السبيل ، وأدّى رسالة التربية الحقة أحسن اداء .

*

وكان الاستاذ كارلو نلينو الايطالي استاذا زائراً في كلية الآداب في الجامعة المصرية — جامعة فؤاد اليوم — وكان موضوع محاضراته تاريخ اليمن قبل الاسلام يُلقيها بعربية فصيحة سليمة من اللحن والعجمة . وقصر هذه المحاضرات اربع سنوات متوالية على عرض النصوص الواردة في المصادر اليونانية والعربية ونقدها . ومع ان الموضوع ضيّق وجاف فقد كانت فائدته عظيمة للغاية . ذلك ان الاستاذ قصد تعويد الطلاب البحث العلمي ونقد المصادر بطريقة عملية ، فقادهم خطوة خطوة في سفر التاريخ الحافل ، وعرض عليهم القمم الرئيسية فيه ، ووضع ايديهم على المادة الاصلية في

كلّ مصدر والمادة المنقولة ، وما شاب الروايات من تحريف وتصحيف . ولضيق الموضوع تمكن من حصر الاخبار اليمنية وردّها الى اصولها متدرجاً من القديم الى الحديث . واستطاع بهذا الاسلوب ان يرسخ في اذهان الطلاب قواعد البحث العلمي والنقد التاريخي . فعلّم مثلاً ان المصادر متسلسلة في الزمن ، وانه لا يجوز الاعتماد على مصدر ثانويّ مع وجود المصدر الاوليّ ، ولا يجوز التسليم بقيمة الرواية التاريخية قبل التثبت من سندها ، أهي رواية عيان او سماع او نقل اوليّ ام نقل غير اوليّ ، ثم ما غرض الراوي أهو مقرّر حقيقة ام متزّلف أم داعية الخ ...

وإذا حُكم على المحاضرات من حيث الكمّ كان شأنها هيّناً ، واذا حكم من حيث النوع كان جليلاً للغاية ، إذ استطاع الاستاذ في ختام المحاضرات أن يسلّم كل طالب « مسطرة » يقيس بها مصادر التاريخ بالدقة التي تقاس بها المسافات . ومن المعلوم أن النقد يدخل في أكثر المباحث العلمية والادبية والتاريخية والمشاهد اليومية على السواء . ومن أجل ذلك تعظم قيمة هذه النتيجة في حياة المرء ، دارساً ومؤرخاً ومشاهداً .

ومن جهة اخرى فان تاريخ العرب من أوسع التواريخ وأغناها مصادر واكثرها اضطرابا ، وليس من النادر ان

تجد في المصدر الواحد روايتين متناقضتين حول عَلَم واحد وحادثة تاريخية واحدة . ومن اجل ذلك أيضاً كان النقد آلة لا غنى عنها للوصول الى الحقائق التاريخية جهد المستطاع .

*

ودرّس الاستاذ أحمد امين في الكلية نفسها عدداً من الموضوعات . وسلك في تدريسه منهجاً ذا طابع خاص يؤدي الى الغاية نفسها التي وصل اليها الاستاذ نللينو ، مع اختلاف كبير بين الاستاذين .

كان الاستاذ يُعِدّ محاضراته ويدوّنها في كراريس . ولم أره مرة يدخل غرفة المحاضرات دون ان يكون كراسه بيده . ولكنه لم يعتد القراءة من الكرّاس - كما يتبادر الى الذهن - بل كان ينظر الى الكرّاس من حين لآخر ، ثم يعرض نقاط الموضوع نقطة نقطة بتسلسل منطقي مركز . وكثيراً ما كان يُقدم للبحث بسؤال ، ثم يتولى الاجابة عنه بنقاط . ويسير على هذا النحو حتى يستوفي عناصر الموضوع . ثم ينتقل الى موضوع آخر الى ان يستوفي البحث المقرّر . وكان حديثه او القاؤه هادئاً فيه أناة ووقفات يستريح اليها الذهن . وكان يُثير في مستمعيه التفكير ويشركهم معه في البحث ويتقبّل أسئلتهم ويجيب عنها . وان جاء السؤال خارجاً عن الموضوع او متعلقاً

ببحث سابق لأوانه يستمهل السائل الى حين يبلغ ذلك البحث . ولم يكن يفرّط بنقطة واحدة في صلب الموضوع ، فكأن درسه عِقْد ذو حبّات معدودات يورد الحبة بعد الاخرى متمهلاً بعد كل حبة حتى يأتي عليها جميعها دون ان يملّ .

درّس فيما درّس النقد الادبيّ ، والحياة العقلية — وهي التي تبلورت بعد في كتابه فجر الاسلام — ، فبدأ في النقد بمعنى الكلمة لفظاً واصطلاحاً ، ثم بمعنى لفظة أدب ، متسلسلاً من القديم الى الحديث ، جامعاً بين مذاهب العرب والافرنج ، ثم بعرض مبادىء النقد مع أمثلة من الأدب العربيّ . ومن المعلوم ان النقاد الاوربيين تفنّنوا في هذا البحث وسلكوا فيه نهجاً يخالف نهج القدامى ، فماذا فعل الاستاذ ؟ قرأ كتب النقد باللغة الانجليزية وقرأ آراء قدامى العرب ، وخرج من القراءتين ببحث شامل . ولكنه جعل جلّ اعتماده على آراء الاوربيين وجلّ أمثلته من الادب العربيّ . ومن يعرف ان الاستاذ تخرج قاضياً لا مدرّساً أدرك ما بذل من جهد كي يخوض هذا البحث . وربما القت شخصيته ضوءاً على محاضراته . إذ هناك شبه كبير بين صنيعه قاضياً وصنيعه مدرساً . فقد كان يدرس القضية العلمية او الادبية جامعاً شتات عناصرها من مختلف المصادر ،

ثم يعرضها وحدة جامعة مانعة – على حدّ تعبيره – بأسلوب متزن هادىء دون ان يترك مجالاً لنقض او استئناف . ويبدو انه كان يفرض جميع انواع الاسئلة ويجيب عنها في صلب المحاضرة . واسئلته الكثيرة التي كان يتكىء عليها في اثناء المحاضرة تؤيد ذلك . وكان بوسع الطالب الذي يدوّن المحاضرات ان يخرج في ختام السنة بكتاب مقسّم الى ابواب ، وكل باب الى فصول ، وكل فصل الى عناصر منسقة تربطها لحمة قوية .

وللدلالة على تمكن هذه الطريقة المنطقية المركزة في محاضراته – ومؤلفاته بعد – اروي الحادثة التالية . ألقى محاضرة في المؤتمر الثقافي الاول في بيت مري دون ان يحمل ورقة . وظنّ الناس – وربما لا يزالون يظنون – انه ارتجل المحاضرة . وفي مساء ذلك اليوم جاء اليه من يطلب خلاصة المحاضرة للحفظ . فما كان منه الا ان اخرج اوراقاً من جيبه ودفعها اليه قائلاً : هذه هي المحاضرة . ودُهش الطالب وسأل : وهل استظهر الاستاذ محاضرته ؟ فأجاب : لا . ولكن من عادتي ان احصر نقاط الموضوع وانسقها ، وعندئذ القيها مع تغيير يسير في الالفاظ لا يؤثر في الجوهر . ومَنْ يسمع الاستاذ محاضراً يدهشه توارد الافكار في تسلسل منطقيّ وخلو عبارته من الحشو كأنه

يلقي من ورقة بين يديه . وهكذا كان في محاضراته في الجامعة .

*

ودرّس الاستاذ ه . ا . ر . جب العربية في مدرسة الدراسات الشرقية في لندن . وكان منهجه يشمل ترجمة نصوص شعرية ونثرية من العربية الى الانجليزية . اما الشعر فكان من اختيار العلامة الالماني نولدكه . واما النثر فكان من القرآن والمقامات البديعية وروايات الاغاني ثم مقدمة ابن خلدون . ويشمل محاضرات في الادب العربي والتاريخ الاسلامي .

ولم يكن القصد من الترجمة سوى التثبت من فهم النص العربي . وهنا تتجلى احدى مزايا الدرس — ودرس العربية خاصة — في الجامعات الاوربية . فالعربي يتوهم حين يقرأ النص القديم انه فاهم ما يقرأ او اكثر ما يقرأ . والترجمة هي التي تصحح رأيه . ويتبيّن له بعد طول الاختبار ان اللغة العربية لغات لا لغة واحدة ، وان كثيراً من الفاظها وتراكيبها تطورت حتى يصحّ ان يوضع لكل فترة او طور لغوي معجم خاص ونحو خاص . فالمقدمة الخلدونية مثلاً تحتوي على عدد كبير من مصطلح العلوم الواردة فيها وعلى اسلوب مركز اشبه بأسلوب الفقهاء . وليس بالامكان فهمها بدقة

– او على الاصح ترجمتها – الا بعد الاحاطة بمصطلح العلوم والالمام بالثقافة التي كانت شائعة في العصر الخلدوني . وهكذا حال كتاب الاغاني والمقامات والقرآن الكريم وما اليها . وبعد التمرس بالترجمة يكتسب القارىء دقة لم يألفها من قبل ، ويقرب من فهم النص على وجهه الصحيح . اقول يقرب ولا اقول يفهم ، لان الفهم يحتاج الى مرتبة اعلى هي تذوّق الثقافة الخاصة بعصر ذلك النص . يُضاف الى ذلك ان الترجمة تُبرز خصائص اللغة من وضوح او دقة او اطناب او غنى لفظي او خصب خيالي ونحو ذلك .

وكان الاستاذ يرى القواعد وسيلة لفهم النص . فاذا مر بموطن لا يتضح فيه المعنى الا بكشف نكتة نحوية او صرفية ، او رأى اسلوباً منحرفاً عن المألوف وقف سائلاً وموضحاً . وليس هناك وسيلة خير منها لفهم القواعد وتمييز المفيد من غير المفيد . أما البلاغة – كما نفهمها نحن اليوم – فلم يضع وقتاً فيها . وربما كان يعتمد على ذوق القارىء الذي لا بُدّ من أن يُدرك الخصائص البيانية بالموازنة بين مختلف الأساليب . ولكنه عُني بالعروض بالقدر الضروري متبعاً الطريقة الرمزية في وزن الأبيات . وهي طريقة تجعل تلك البحور الطويلة العريضة التي يغرق فيها الدارس غايةً في اليسر .

وواضح أن نهج الاستاذ أشبه بأساليب القدماء الذين اعتبروا علوم اللغة متشابكة ، وكان همهم فهم النصوص . ولكن المتأخرين انحرفوا عنه وأطالوا وعسّروا دون فائدة . وهذا ما حمله على إقصاء كتب القواعد من منهجه . أما القواعد نفسها فلم يُقصها . وكثيراً ما كان يردّ الطلاب الى باب معيّن للتوسع او النقد .

وسلك في الادب مسلكاً طريفاً . عرض الموضوعات متسلسلةً مبيناً فضل كلّ متأخر على من سبقه او نقصانه عنه ، مفصلاً حيناً ومجملاً حيناً آخر ، راداً الطلاب الى المراجع للتوسع . ونظر الى الأدب نظرة أوسع مما اعتاد غيره أن يفعل ، فأدخل فيه حديثاً وتاريخاً وفقهاً . وصنع مثل ذلك في التاريخ الاسلامي . وكان قصده من هذين الموضوعين وضع الخطوط الرئيسية فحسب ، تاركاً التوسع والتعمق للطالب نفسه . وبذلك جعل العلم هداية وارشاداً لا تلقينا .

*

وبعد فهذه صور ظلّت عالقة في الذهن . فان لم تُفِد تبصراً بالاساليب فلتكن تأريخاً لمجاهدين في ميدان ما يزال بعيداً عن الانظار .

صلف ...

•

قمت هذا الاسبوع بتجربة دونها تجارب باستور وأديسون ومار كوني ومن لفّ لفّهم ! وكيف كان ذلك ؟ اسمع يا عزيزي واضحك او اعبس ..

شاهدت شيئاً يسمونه الصلف في نفر من خلق الله ، فنفرت منه أشدّ نفور ، وكرهت هذا الخلق ، وتولدت فيّ حاسة اخذت تقوى وتشتدّ حتى كدت اكره نفسي وألزم بيتي ، لا أرى أحداً ولا أُحب ان أسمع شيئاً من احد . تلك حاسة إدراك الصّلف مهما قلّ ودقّ .

وفي الوقت نفسه ظهر فيّ ميل شديد الى التواضع الى أبعد حد يمكن ان تتصوره . ولولا عيون الناس لخلعت ألبستي ووضعت على ظهري بردعة الحمّال او أطمار الدرويش الحق وضربت في الريف على غير هدى ، حتى ينساني الناس وأنسى أنا نفسي ..

وفي هذه الحالة النفسية ، والكآبة تتغلغل في كل عرق من عروقي ، مرّ ببالي خاطر كلمح البرق ، فأغفلت شأنه ولم آبه له ، واذا به يعود ثانية ويلبث مدة أطول ، فلم يسعني إلا أن أعيره التفاتاً ، ولكني عبست وطردته من بالي ، ولم يلبث ان عاد ذاك الخاطر ثالثة ، فلم أعبس هذه المرة ، بل ضحكت . واخذ الخاطر ينبسط وينمو بسرعة ، ويتشكل بصور مختلفة ؛ واخيراً اضحى فكرة ناضجة صالحة للتنفيذ .

وكنت في تلك الفترة أجلس في غرفة يشاركني فيها اثنان ، كلّ منهما منصرف الى عمله ، لا يدري ما يدور في هذا الرأس الصغير المجاور له .

وفي لحظة دبّ في جسمي شعور عجيب أشبه بالحمّى التي تنتاب الجسم من أعلى الرأس الى أخمص القدمين ، وشعرت فعلاً بارتفاع خفيف في حرارة جسمي ، ونهضت قليلاً عن مقعدي وسويت جلستي ، وانتصب ظهري ، وتوترت عروق عنقي ، وارتفع رأسي ، وشعرت بثقل يتجمع في اعلى الدماغ ويؤثر في حركته ، وأدرت رأسي نحو من يجلس الى يميني فاذا بي أراه صغيراً قليل الشأن ، وما هو كذلك ؛ فاستعذت بالله . وأدرته يساراً فاذا بي أرى من يجلس الى يساري صغيراً وضيعاً كصاحبه ، وما هو

كذلك ؛ فأعـــدت رأسي ونظرت أمامي ورحت أفكر فيما أصابني ، لقد بدا لي صاحباي على هذه الحال لان ارتفاع رأسي عن مستواه العادي غيّر الزاوية التي أنظر منها ، فبدا المنظور مخالفاً لمـــا اعتدت أن أراه ؛ والمرتبات تختلف أشكالها باختلاف الناحية التي يصوّب منها النظر اليها . ولكني قلت : ولم اختلفت طبيعة المرئي ؟ لِمَ هذا الصغار الذي أجده في هذين الرجلين وهما بريئان منه ؟

وأدركت ، يا عزيزي ، فوراً أني مصاب بالصلف ، وأن الفكرة التي جالت بخاطري قد تحققت بالتآمر بين عقلي الباطن وشعوري الباطن . ورفعت يدي الى موضع الشاربين أريد أن افتلها وارفع طرفيها الى أعلى ليشبها شاربي عنترة ابن شدّاد ، كما تصوره الصور الشعبية ، ولكن يدي وقعت على مثل الشوك القصير ، وندمت لأني لم أطلق شاربيّ ، ولم أشذبها ولم أعالجها بالزيوت . وانطلقت يدي الى أعلى ، الى حاجبي فنفشتها وحاولت أن أجعل لها طرفين دقيقين يشابهان طرفي الشاربين ليسدّا مسدهما ، كما يفعل بعض الناس الذين يحلقون الشاربين ويستعيضون عنها بشاربين علويين ، ولكني لم أفلح ، لان شعر حاجبي لم يبلغ الطول الذي يعين على تحقيق ما أريد ؛ ومع ذلك فقد صنعت بهما كلّ ما يمكن أن يُصنع ، فنفرت الشعرات كلّهـــا ،

وصارت أشبه برموش العينين .

وفيما أنا أعالج الشاربين العلويين دخل الغرفة زائر وحيّاني ، فحاولت أن أنهض لأردّ تحيته ، ولكني شعرت كأن حبالاً أوثقت ربطي بالمقعد ، فلم استطع حراكا ، فحنيت ظهري قليلاً الى الامام ، وأشرت الى الزائر أن يجلس على الكرسي الذي بجانبي .

وبدأ الرجلُ حديثه ، والتفت اليه فاذا عيناي تريانه كما رأتا مجاوريّ ، واذا به يبدو صغيراً قليل الشأن . وقطبت حاجبيّ حتى اتصل طرفاهما الغليظان وأصبحا كالشاربين ، ولم استطع أن أجاري الزائر في الحديث على النحو الذي ألفته في سابق عهدي . وألفيت نفسي أتحدث أكثر مما اصغي ، ويخرج كلامي في جمل قصيرة ونبرات قاطعة كحدّ السكين . وادرك الزائر انه امام شخص قد غلبه الصلف وتملك عليه حركاته وسكناته وحديثه ، فراح يكرر كلمات : نعم ، صحيح ، عظيم ، مدهش ، أحسنت ! وأنا لا ادري علامَ يعقّب ؟ ولكني لا اشك في ان حديثي لم يكن مما يستحق الاستحسان والدهشة والتعظيم . وتعجّل الزائر الانصراف وغادر الغرفة وهو ينحني ويبتسم ويحييني بغاية الادب والتذلل الى ان غاب عن ناظري .

وحان وقت الانصراف . فنهضت متثاقلاً ، وحملت

اوراقي وسرت بخطى وئيدة ورأسي ما يزال مثقلاً بالحمل الذي تركز فوقه ، ولم أحيّ احداً ، وحيّاني كل من رآني ، وسلكت سبيلي الى البيت ، ورأيت في طريقي كل من مر بي وضيعاً قليل الخطر . ولم تتجاوز تحيتي الاشارة باصبعي حيناً ، وفتح فمي بكلمات قليلة حيناً آخر . وشعرت اني محاط بجلال لم اعهده في سابق ايامي . وراقني هذا الوضع . وحين بلغت بيتي دخلت الى مكتبتي واستقيت على المقعد الطويل الوثير وغصت في لجة الفكر . أهذا هو الصلف حقاً ؟ أهذا ما كرهت من الناس المصابين به ، استغفر الله ، بل المتحلين به ؟ ما اسخف تفكيري ! أمثل تلك الصفة العالية زهدت في ذلك النفر من كرام الخلق ، وفكرت في بردعة الخمال واطمار الدرويش ؟ لقد كنت مخبولاً ، والآن عاد اليّ اتزاني ورشدي .

ولبثت ، ايها العزيز ، على هذا الحال اسبوعاً ، وتجلت لي الدنيا بصورة غانية فاتنة ، كل ما فيها ساحر وجميل . ولم يحدث ما يعكر مزاجي ، وصرت اقضي اعمالي بسرعة ، لا اجد مستعصياً ، ولا اصادف عقبة ، وكأن الحياة سهلة ممهدة السبل ، ناعمة الموطىء . وغدوت من اولئك النفر الكريم المبجل المحاط بجميع مظاهر التكريم والتعظيم ، المقضيّ الحاجات بأيسر سبيل . وندمت على ايامي السابقة كيف

أزجيتها بحمقي وغفلتي على ذلك الوجه البشع ، ووددت لو استرددت تلك الايام وعشتها ثانيـة وهي تطفح بالبشر والغبطة والرغد .

وذات يوم دخل عليّ زائر كبير المقام جليل القدر ، فأومأت اليه ان يجلس بجانبي ، كما دأبت في ايام ذلك الاسبوع ، ولم انهض له ، ولم احفل به ، ولم أعره التفاتاً . وجلس الزائر متجهم الوجه ، وقال لي بصوت مرتفع : أية حماقة ؟ . قلت : حماقة ! ونزلت الكلمة على رأسي كالصخر ، وأزالت الثقل من مكانه في أعلى رأسي ، وخرج الصلف من جسمي بحركة تشبه الرعدة التي تصيب المحموم ، وتبعه نضح عرق خفيف . والتفتُّ الى الزائر فاذا به يبدو لي بجلاله وهيبته المعهودين ، فوقفت وانحنيت قليلاً وقلت : أهلاً وسهلاً .. فقال : لا أهلاً ولا سهلاً ! أقف ببابك أنتظر الاذن بالدخول كأني ساع في باب وزير ، ثم تستقبلني هذا الاستقبال البارد ، وعهدي بك تعرف مقامي وتحتفل بي ؟ فهل بلغك أني فقدت كرامتي وجاهي حتى أنزل منزلة الوضيعين ؟ أم ان حالك انت قد تغيرت ، وانسلختَ عن شمائلك الحلوة ، وتواضعك الجميل ، وايناسك وبشرك التي قربتك الى القلوب ؟ ولم أحر جواباً . ولكنّ يدي اليمنى ارتفعت الى حاجبي فسوّت

شعرهما وضغطت طرفيها الدقيقين مراراً ، وانفرجت الفسحة بين طرفيها الغليظين ، وبان جبيني منبسطاً كجلد الصلعة ، واخذ الرجل يتدفق في كلام على غرار ما ذكرت ، وانا أصغي إصغاء الطالب الى استاذه الجليل . وهمّ الرجل بالانصراف ، فقمت اليه وتعلقت بأذياله ، وقلت له : عفواً ، إني لحزين لما حدث ، فاجلس وحدثني في الموضوع الذي قصدتني من أجله ، وستجد مني ما ألفتَ من الانتباه والعناية . فغلب على الرجل طيب قلبه ، وتبسط في الحديث ، وأوليته كامل عنايتي ، فسرّي عنه ، وقضيتُ حاجته ، وانصرف وانا أشيعه الى الباب وهو يعتذر ويقول : أستغفر الله ! أستغفر الله ! لقد غمرتني بكرمك ، بعد أن أسأتُ اليك ... سامحني .

وعدت الى مقعدي وارتميت عليه . ونظرت الى من على يميني فاذا هو في مقامه الكريم ، ونظرت الى من على يساري فاذا هو كذلك على ما عهدت من الرفعة . وضربت بيدي على جبيني ، ونظر الرجلان وقالا : مالك ؟ قلت : لعن الله الشيطان . لقد أنساني شيئاً حرصت عليه ، فضحكا وقالا : اجله الى غدٍ ...

وأجلت الصلف لا الى غد ، بل الى نهاية العمر . لقد أودى ذلك الزائر الكريم بمولود رافقني اسبوعاً ، وحرمني

حلاوة سرت الى جميع أطرافي . وها أنذا اعود انساناً كسائر الناس يغلبه التواضع فينحني حتى يكاد يبلـــغ رأسه صدر محدثه . وتمرّ بخاطري البردعة والأطهار في اغلب الأحيان ، واكاد اكره الناس جميعاً .

إنها تجربة ، يا عزيزي ، فاضحك او اعبس . تجربة دامت اسبوعاً . آه اسبوعاً كنت فيه سعيداً .. لا شقياً .. لا سعيداً .. لا شقياً .. واسلم للحب .

عواطف العرب

•

وقع * لي اليوم حادث أثار عواطفي وهزّ مشاعري . فبينما كنت أقف في باب المعهد الذي اعمل فيه أقبلت سيدة ملتفة بملاءة سوداء وسألتني عن ابن لها . فقلت لها : إنه في الدرس . فسألتني هل أعرفه ؟ فقلت : إني اعرفه واعلمه . فقالت لي بأدب جم : ما اسمك ؟ فقلت : فلان . فهجمت عليّ وأكبّت على يدي تريد تقبيلها . فسحبت يدي وابتعدت قليلاً ، لا كبراً ولكن لاني اكره ان يُقبّل يدي أي مخلوق ، فكيف بسيدة !

وانطلقت السيدة تتحدث بصوت رقيق فقالت : ياسيدي ، أعرني سمعك قليلاً ، إني أُمّ ، والامّ معذورة إن أحبت ولدها وفلذة كبدها الى حد العبادة . وهذا الذي اسألك عنه له قصة عجيبة . إنه ولد ثلاث نساء لا امرأة واحدة . لقد تزوج والده امرأة فلم تلد له ولداً . فتزوج الثانية فلم

* من رسالة الى صديق في لندن .

تلد . ثم تزوجني فرزقه الله مني ابني فلاناً الذي سألتك عنه . ثم توفي والده الشيخ بعد مولده ببضع سنوات . وكنا – نحن زوجاته – نحبه ونجله لرفقه بنا وحدبه علينا . ونحن اليوم ، نحن الثلاث نوجّه بصرنا الى الولد مرة ، ونرفعه الى الله مرات ليحفظه لنا . فهو ليس ابن امرأة واحدة ، إنه ابن ثلاث نساء .

وقد كتب الينا يذكرك بخير . وما عرفتك حتى هجمت أودّ تقبيل يدك اعترافاً بجميل صنعك ، واستدراراً لعطفك عليه في الايام المقبلة . فلا تبتئس يا سيدي . اني امرأة كسيرة القلب . وهذا فلذة كبدي وابن زوجي الشيخ ، ووحيد تربيّ . فلئن نشدتك الله ان تجعله امانة في عنقك وان تحوطه بعنايتك فاني افعل ذلك مدفوعة بعاطفة جامحة .

وما اتمت المرأة حديثها حتى سرت عاطفتها المتأججة اليّ . فقلت لها : يا سيدتي هوّني عليك . ان ابنك بحراسة الله ، وحراسة اساتذة يعتبرون طلابهم ابناء لهم . وابنك مهذب وذكي وما احسبه إلا بالغاً ما تريدين له من نجاح وتوفيق بدعائك له اولاً ، وبجده واجتهاده ثانياً .

فأخذت المرأة تدعو لي بصوت متهدج . وانصرفت الى عملي ، وقصتها تشغل بالي . ومرّ الطالب بعد ذلك من امامي فلم احدثه بما وقع ، ولكني لا اكتمك اني رأيته بعين

غير العين التي كنت اراه بها . رأيته بطل قصة مشجية ، ورأيت حقوقه عليّ اضعاف ما كنت اراها من قبل .

وتعدى تفكيري في هذا الشاب الى سائر رفقائه . فهذا شاب قد شاء الله ان يكشف لي عن سرّه . او ليس من الجائز ان يكون لكثيرين من زملائه اسرار كسرّه ، وقصص كقصته ؟

وربما تعجب لهذا الفرض ، لأن الناس في بلادكم لا يحرصون هذا الحرص على ان يكون لهم اولاد . ولا يتوسلون بما توسّل به الشيخ . فالقانون لا يبيح تعدد الزوجات . والمجتمع لا ينظر الى الولد هذه النظرة ، ولا يعنى بشأنه كلّ هذه العناية .

ولكن الامر في بلادنا على خلاف ذلك . فالذي يموت عقيماً يعتبرونه كأنه ما عاش . ويتفاخر الناس بالبنين ويتكاثرون بهم ويعتزون . هذه هي النظرية السائدة في مجتمعنا — على الأقل — ، والشرع يُقرّ هذا الاعتبار ، ويجعل للذكر مثل حظّ الانثيين .

ولا شك في ان العلاقة الأبوية والبنوية تفرض واجبات لا تعرفونها انتم في بلادكم . فاحترام الوالد وطاعته منصوص عليهما في القرآن . وهو ينهى الولد عن ان يقول لأبويه « أف » او ان ينهرهما . وحبّ الوالدين لابنهما حبّ

ممزوج بالاعتزاز والتفاخر . وإساءة الولد – في المجتمع – تلحق ابويه وأسرته جميعها .

وانتم تفرضون على الأبوين واجبات تنتهي عند بلوغ الولد سن لرشد . ثم تتركونه يتصرّف في حياته كيف شاء . فان أحسنَ فلنفسه ، وإن أساء فعليها . وتعتبرون البنت في ذلك كالولد ، فلها حرية كحريته ، ومسؤولية كمسؤوليته .

ولا أفاضل بين النظامين ، لأن ما من عاقل الا يرى لكل من النظامين محاسن وعيوباً . وانت تعلم رأيي في هذه المسألة . وقد أفضنا فيها غير مرة . وتحدثت بذلك الى كثيرين غيرك . وكان بنو قومك يعجبون اشد العجب حين أشرح لهم تفاصيل نظامنا الاجتماعي ، بقدر ما كنت أعجب حين أسمع تفاصيل نظامكم . وكنا حين ننتهي من الحديث الى هذا السؤال : اي النظامين أفضل ؟ يقولون : لا شك في ان لكل نظام عيوبه ومحاسنه ، ولكنكم مغالون بقدر ما نحن مغالون . واقول انا ايضاً قولهم .

وكنا – نحن الشرقيين – ان سمعنا قصة غير مألوفة عن العلاقة الابوية عندكم نذكرها ونحن لا نكاد نصدقها ، وربما بالغ بعضنا في الرواية على الطريقة الشرقية . وهناك قصتان لا أنساهما . وما أظن اني ذكرتهما لك .

أولاهما : ان مواطناً منكم استأذن مرة تاجراً شرقياً

ـ يتاجر بالسجاجيد في لندن ـ بأن يسمح له بالتغيب بعد ظهر يوم من ايام العمل . فقال له التاجر الشرقي : حباً وكرامة ، ولكني اودّ أن اسألك عن سرّ طلبك هذا . فقد مضى عليك عشرون عاماً دون ان اسمع منك مثل هذا الطلب ؟ فأجاب المواطن : اريد أن اقابل امي . فقال التاجر الشرقيّ : ولم لا تقابلها يوم الاحد ؟ فأجاب : لأني ما رأيتها منذ عشرين عامـــا . واليوم ـ فقط ـ علمت بوجودها في لندن ، واتفقنا على ان نلتقي بعد الظهر . فأذن له التاجر بالتغيّب وهو لا يكاد يُصدّق ما سمع .

والثانية : ان رجلا ، من مواطنيك قال لأحد جيرانه الشرقيّين في الشقة التي يسكنها : لقد بعثت لأمي رسالة أستأذنها بضرب موعد للمقابلة . فقال له جاره : وهل تقابل امك بميعاد ؟ فقال : وهل يصحّ ان اقابلها بغير ميعاد ؟

وهناك قصص كثيرة في هذا الموضوع لا تجد لها اشباها في مجتمعنا . وفي رأيي ان كلا المجتمعين مغال . ولا بُدّ من ان يأتي وقت تخفّ فيه هذه المغالاة ، ويدنو المجتمعان احدهما من الآخر .

ولست ـ كما قلت ـ اقصد التفاضل . ولكني اخرج من قصة الطالب ونظائرها بنتائج مهمة لا تتسع لها هذه الرسالة .

آه يا عزيزي . لا ادري كيف يتشقق الحديث . فاني

امسك بالقلم لأحدثك عن نفسك ولأبثك شوقي ، فأرى قلمي يشط ولا يترك لي مجالاً للتعبير عن عواطفي . وعسى ان يكون في ذلك بعض الخير . والى اللقاء .

٢

لأتمّ حديثي السابق . فقد بلغت نقطةً أودّ ان أفيها حقّها من البحث .

لا بُدّ من ان تترك التربية أثراً كبيراً في نفسية الطفل . وتربيتنا التي حدثتك عنها في رسالتي السابقة تورث الولد صفتين : الأولى اضطرام العاطفة . والثانية الاعتزاز بالنفس . وهاتان صفتان بارزتان في النشء العربيّ ، بل في الأمة العربية وخلقها وأدبها . فالطفل الذي يُحاط بالحبّ من كل جانب ، ويلمس عواطف الأبوين ومن يليهما بالقربى ، ولا سيّما الاناث ، ويرى أنه — في كثير من الاحوال — موضع الرجاء ومعقد الأمل تنفعل نفسه بهذه المظاهر ، وتنمو فيه عاطفة قويّة هائجة .

أليس من البديهي ان يُحبّ المرء من يحبه ؟ وان يفرط في حبه بقدر ما يفرط المحبون في حبهم إياه ؟ وإن أحبّه عشرون شخصاً فلا بُدّ من ان يحب هو العشرين شخصاً . وإن احبه العشرون بحرارة فلا بد من ان يحبهم هو ايضاً بحرارة . والنتيجة ان العربي مشبوب العاطفة متأججها .

واللغة العربية والأدب العربي مملوءان بالشواهد على ذلك .

فالشعر العربي عاطفي ، والنثر العربي عاطفي . وإنه لمن أشقّ الأمور ان يحاول المرء ضبط هذه العواطف او كبحها . وأذكر ان الطلاب حين يكلفون كتابة رسائل الى والديهم يستهلون رسائلهم بعبارات الاحترام التي تبلغ حدّ التقديس . ومن ثمّ إن كلفوا كتابة رسالة الى صديق — او على الأصحّ الى رفيق ، حسب اصطلاحكم — يكيلون له عبارات الحب بالمكيال نفسه . وقد يبدو أنهم مراؤون . والحقيقة انهم صادقون كل الصدق . فعواطفهم ينابيع متفجرة من أرقّ المشاعر واصفاها .

وقد عرف العربي بالوفاء ورعاية الذمة . وما هاتان الصفتان ؟ إنْ هما إلا مظهران لاستقرار جذور الحب في أعماق النفس .

ولا اكتمك اني حين اكتب الى اساتذتي من الاوربيين ، او حين اكتب اليك انت ، تهبّ في نفسي عواطف كالعواصف . وأعالج نفسي وأحتال لها حتى لا ينمّ اسلوبي عما يكنه صدري ، لاني أخشى ان أتهم بالرياء .

وعبارة Flowery Language سمعتها ألف مرة من أساتذتي الأوربيين في معرض الحديث عن اللغة العربية . وما كنت أتحسس في ذلك الوقت هذا الذي أشرحه لك لأقول لهم :

إن هذه اللغة « الزهرية » لغة قلوب عامرة بالحب الصادق . ويؤلمني ان اقول لك : ان جهل هذه الصفة في الخلق العربي يُحدِث مشاكل لا تعدّ لمن يساكننا او يعاملنا من الاوربيين .

وقد قيل : ان ثورة في ناحية من نواحي البلدان العربية شبت لان رجلاً اجنبياً هاج عواطف السكان . وقد يبدو ذلك مبالغاً فيه . ولكنه لا يعدو الحق .

وابن الامير وابن الأجير سواء في اضطرام العاطفة . فكلاهما يحب بافراط ويبغض بافراط ويثور بأفراط . والسبب ان ابن الأجير يُحاط في بيئته بالعواطف نفسها التي يُحاط بها ابن الامير . وربما كان لوالد الامير أولاد كثيرون ، ولم يكن لوالد الأجير ولد سواه . وعواطف البشر لا تخضع للجاه والمال . وليس ما يمانع في الطبيعة البشرية ان تحب امرأة فقيرة ابنها كحب امرأة غنية . وقد تكون للأولى ظروف تضاعف عواطفها .

والاعتزاز بالنفس صفة ثانية . وهي نتيجة تيقظ الحس بالكرامة . والكرامة تتولد عن التكريم والحب والايثار . فالعواطف التي تُمنح تتجمع في النفس وتحفظ حقاً مكتسباً . وأقلّ محاولة لسلب هذه العواطف الممنوحة افتآت على الحقوق . وهذا سرّ من اسرار النفس العربية التي يفطن اليها أكثر من يعاملنا من الأوروبيين . فالعربي يحتمل

الجوع والظمأ والعري ، ولكنه لا يحتمل ان تمسّ كرامته . وجميع ضروب الحرمان مألوفة عندنا الاّ حرمان الكرامة . ومن اجل ذلك تضيق صدورنا بالنقد ، ولا سيما ان شممنا فيه سوء النية ، لأننا نحمله على أنه ضرب من الافتآت على الكرامة . ومن اجل ذلك تعمل الوشاية في نفوسنا عمل السمّ . ويُحدث الفساد والتضريب في صفوفنا من الانشقاق ما لا يُحدثه سلاح آخر .

ونبالغ بالاعتزاز بالنفس الى حدّ اننا نأبى تحري الوشايات والدسائس ، ويبلغ غضبنا أقصاه عند سماع الطلقة الاولى من بندقية الواشي النذل ، ولا نبقي مجالاً للتثبت من صحة ما قيل ، ولا تطيق أعصابنا تحمل الاهانة ، فتنهار الصلات في لحظات انهيار الرمل .

ما هذا ، ايها الصديق ، أهذه رسالة مشوق أم بحث يعرض على استاذ؟ اكتب اليّ ايها الصديق واسمعني صدى أحاديثي هذه في نفسك . فأني لا افتأ افكر فيك وفي مطارح الهوى والفتنة . أتذكر رحلتنا على الاقدام في مروج « كِنْت » ؟ لكأنها كانت أمس ، نعم ، أمس ، والى اللقاء .

أديب العربية

محمد اسعاف النشاشيبي

•

لا نعرف السنة التي ولد فيها أديب العربية محمد اسعاف النشاشيبي . والمذكور في اوراق الحكومة سنة ١٨٩٠ م ، وهي دون ما يرويه معاصروه . وذكر احدهم سنة ١٣٠٠ هـ = ١٨٨٢ م .

ووالده عثمان بن سليمان النشاشيبي من أبرز رجالات عصره ذكاءً وعلماً وبسطة مال . وقد تقلّب في مناصب الدولة حتى أصبح عضواً في مجلس المبعوثين في الاستانة . ووالدته ابنة الحاج مصطفى ابو غوش الملقب بملك البر ، وابنة عمة ابيه عثمان .

ورث النشاشيبي عن أبيه مزاجه العصبي الناري ، وميله إلى الأدب ، وجلّ ثروته . ونشأ في عصر كان فيه المتعلمون قلةً ، غاية مطلبهم الفقه واللغة والخط والحساب. وعرفت بيت المقدس في ذلك العهد حلقة من الشيوخ ينتظم فيها السادة : محمد جار الله ، وعارف الحسيني ، وموسى عقل ،

واسعد الامام ، وراغب الخالدي ، وكامل الحسيني المفتي ، وعثمان النشاشيبي ، ورشيد النشاشيبي ، وعبد السلام الحسيني وغيرهم . وكان هؤلاء الشيوخ يتقارضون الشعر ويتذاكرون الأدب ، ومسائل الفقه في دواوينهم . ولعلّ النشاشيبي ارتاد الحلقة مراراً وسمع نوادر اللغـــة والأدب ورأى الكتب النفيسة في خزانة والده وخزائن الشيوخ ، وإن لم يع من هذه وتلك إلا « الانطباعات » .

وبعد أن أتمّ دروسه في المكاتب المعروف حالها في ذلك العهد اقترح الشيخ راغب الخالدي على أبيه أن يرسله إلى المدرسة البطريركية في بيروت ، ففعل . ولبث زهاء أربع سنوات يتلقى العلم على الشيخ عبد الله البستاني والشيخ محي الدين الخياط والشيخ مصطفى الغلاييني وغيرهم من أساتذة المعهد ، فتذوّق الأدب على نحو لم يكن مألوفاً في بلده ، وشغفته العربية بأسرارها الدقيقة وألفاظها الأنيقة ، وأساليبها المحكمة . وكان البستاني أورثه حبه الأدب القديم وبغضه اساليب المحدثين ، وكلفه بالبحث عن أصول المفردات . وألمّ بالفرنسية الماماً حسناً أعانه على قراءة بعض الكتب العلمية والصحف كالطان والعالمين . ورأى العربية على نور لغة اعجمية مهما دقّت ورقّت لا تبلغ شأو لغته ، وهي التي « أتقنها الاتقان ، وأبدعها الابداع . قد جمعت الحسن كله في نظام . وبذّت

جميع لغات الانام . فالنجود مخاصرها حيثما سارت ، والتنوق معانقها انىّ دارت . واذا تنافرت اللغات يوماً وتساجلت جاءت فتاة الجزيرة سيدة عقيلة وجئن إمـــاء .. وهي لغة (الكتاب) ولغة الأعراب ، ولغـة الايجاز اذا ابتغيت الايجاز ، ولغة الاطناب إن ترد الاطناب . فهيهات هيهات أن تماشيها في الفصاحة والبلاغة لغة أو يجاريها في البيان لسان ». (من كلمة له عنونها سبيكة العجسد في لغة محمد)

وعاد إلى بلده شاباً يافعاً لم يتجاوز العقـــد الثاني ، مزهواً بعلمه معجباً بأدبه متكبراً على أقرانه . عاد وبيـده قصيدة مطبوعة بماء الذهب في وداع مدرسته . وما كان القوم يبغون أدباً . ومـــع ما تحلّى به والده من أدب وذكاء ، فقد أراد ابنـه على أن يكون عوناً له على إدارة أملاكه الواسعة وأمواله الطائلة . فارتطم رأس النشاشيبي بصخرة صماء ، وعانى آلامـــاً مبرحة . وزاده شقاء بؤس أمته ، واستخذاؤها ، فنظم قصيدة في اربعة وعشرين بيتاً استهلها بقوله :

العرب مات شعورهم فاندبه دهرك باكيا
ولّى فولّى بعـده أنسي وساء مآليـا

*

قد كنت اطمع ان ارى وطني بهيجـــاً زاهيا

فوجدته من كل علم أو علاء خاليا
فرثيته وندبته وسكبت دمعي غاليا

*

فسعادتي يا ابن الكرام وبغيتي ومراميا
ان تصبح العرب الأذلة سادة وموالياً

وجاء الدستور سنة ١٩٠٧ وارتفع الكابوس ، وانطلقت الالسنة من عقالها ، واستقبله النشاشيبي بقصيدة طويلة استهلها بقوله :

اخطري اليوم في الربوع اختيالا
لا تخافي من العدو اغتيالا

وظهرت عدة مجلات ، وصال النشاشيبي بقلمه ينظم حيناً وينثر حيناً آخر . واصدر المرحوم حنا العيسى – شقيق الكاتب المرحوم يوسف العيسى صاحب الفباء الدمشقية – مجلة الاصمعي في بيت المقدس ، فالتقى ثلاثة اصدقاء ، النشاشيبي والعيسى والاستاذ خليل السكاكيني في ندوة صغيرة . ولقّبوا النشاشيبي بأبي الفضل لولعه بمقامات البديع ، والسكاكيني بأبي الطيّب لكلفه بالمتنبي ، والعيسى بأبي سعيد لاصداره مجلة الأصمعي . وتولى النشاشيبي رئاسة تحريرها نيابة عن صاحبها مدة وجيزة . واصدر المرحوم خليل بيدس سنة ١٩٠٨ – ١٩٠٩ مجلة النفائس ، وعمرت زهاء تسع سنوات ، ولم يخل

مجلد منها من شعر النشاشيبي او نثره . وصدرت سنة ١٩١٢ مجلة المنهل في بيت المقدس فكان من كتابها . وكتب في عدد من الصحف العربية في مصر وسوريا .

واعظم أثر للنشاشيبي في هذه المرحلة كتاب صغير الحجم نشره سنة ١٩١٢ في مجلة النفائس بعنوان « امثال أبي تمام » جمع فيه أمثاله ، كما جمع من قبلُ الصاحب بن عباد أمثال المتنبي ، وقرأ من اجله اربعمائة كتاب من كتب الادب وغيره من الفنون . وعده طائفة من الاساتذة المحققين « خير كتاب بدا في الأدب العربي في هذا العصر ». وأثر هذا الكتاب في توجيه النشاشيبي نحو الادب القديم والعناية بمصادره النادرة في ذلك الحين ، والبحث والتنقيب في أمهات المعاجم كما اثر في اسلوبه . فقد كان يرجو أن يصنع في النثر ما صنع أبو تمام في الشعر . وهذا سر تفرّده بأسلوبه العجيب .

وأعجب ما رأيت من شعره في هذا الدور قصيدة في سبعة وعشرين بيتاً عنوانها « فلسطين والاستعمار الاجنبي » جاء فيها :

يا فتاة الحيّ جودي بالدماء بدل الدمع اذا رمت البكاء
فلقد ولّت فلسطين ولم يبق يا أخت العلى غير ذماء
انها أوطانكم فاستيقظوا لا تبيعوها لقوم دخلاء
كيف ترجون حياة بعدها ونعيما وهناء وصفاء

وفي غمرة الحرب عكف النشاشيبي على القراءة بجلد عجيب ، وكان لا يبرح بيته أياماً ولياليَ مكرهاً . ومن آثاره قصيدة قبّح فيها سيرة الترك الجائرة مطلعها :

لئن ساس أبناء المغول قبيلة نأى الخير عنها والبلاء أقاما

وقبيل نهاية الحرب انضم الى اساتذة الكلية الصلاحية التي انشأها جمال باشا في بيت المقدس بادارة المرحوم رستم بك حيدر ، وألقى اولى محاضراته بعنوان « كلمة في سير العلم وسيرتنا معه » حث فيها على طلب العلم في الغرب . وفي هذه المحاضرة نضج اسلوب النشاشيبي ونصع. ومن قرأها ووازنها بسائر آثاره بعدُ رأي وحدة الاسلوب ووحدة الرسالة والفكر .

وبعد الحرب الكبرى ـ الاولى ـ انصرف النشاشيبي الى التعليم ونشر رسالته في حب العرب والعربية بصوت عربي فصيح وجرأة كانت على خصوم العربية كحدّ السكين . وانتقل من التعليم الى التفتيش الى ان أضحى مفتشاً للغة العربية حتى سنة ١٩٢٩ . ومن آثاره في هذه المرحلة « مجموعة النشاشيبي » و « البستان » . وفيهما يتجلى ذوقه الرفيع وتوجيهه القومي . و « قلب عربي وعقل اوروبي » وهي محاضرة القاها في جامعة بيروت الاميركية سنة ١٩٢٤ ينبيء اسمها عن موضوعها ، و « كلمة اللغة العربية » وهي دفاع عن العربية لا يدانيه دفاع في الادب العربي الحديث

بما أذاع صيته في البلاد العربية عامة والقطر المصري خاصة اذ جهر به في جمعية الرابطة الشرقية في القاهرة سنة ١٩٢٤ فتهافت الادباء على لقائه وتعظيمه . ورسالة عنوانها « العربية وشاعرها الاكبر احمد شوقي » وهي خطبة في المهرجان الشوقي ، و « العربية والاستاذ الريحاني » .

وبعد ترك ادارة المعارف انقطع النشاشيبي الى القراءة والكتابة والرحلات في مصر والشام . وصدرت عنه رسائل قصيرة في اصلها خطب اقتضتها المناسبات ، « كمقام ابراهيم » و « بيروت والغلاييني » ، ومقالات في موضوعات متنوعة يذيلها حيناً باسمه ، وأحياناً بأسماء مستعارة . ومن ذلك سلسلة في الرد على المبشرين ، ونقل الاديب ، خص بها مجلة الرسالة الغراء . على ان اعظم اثر تركه في هذه المرحلة هو كتاب « الاسلام الصحيح » . وهو — في رأيه — اعظم اثر في جهاده الطويل . وكان يقول لي مداعباً : سيذهب كل اثر في هذا الوجود إلا الاسلام الصحيح . وقد قرأ في سبيله نحو تسعمائة كتاب في مباحث متشعبة عويصة . وكل من عرف النشاشيبي كان يعجب لكتابه هذا . ولكنه في الواقع كتاب في صلب موضوعه ، إذ هو قائم على غربلة النصوص ونقدها وتحقيقها . وقد رأينا كيف بدأ تأليفه بقراءة اربعمائة كتاب ليشرح امثال ابي تمام . اما موضوع الكتاب

فثورة منبعثة من اعماق روحه، يسندها علم واسع وتفكير اصيل.

وحين توفي شوقي بكاه النشاشيبي بكلمة بلغ أسلوبه فيها الذروة، وجاء معه النثر الموزون والشعر المنثور بلا تكلف. وكانت آلامه النفسية في هذه الفترة تملي عليه كلاماً أشبه بالنواح منه بالكلام المألوف، كما ترى في كلمته « بيروت والغلاييني » و « البطل الخالد صلاح الدين » والقسم الاخير من « الشاعر الاكبر احمد شوقي ». وخير ما يعبر عن هذه الحالة بيتُهُ الذي ارتجله في جلسة مع امير الشعراء :

لا تلمني بانحراف كان غيري يتكلم

وظل النشاشيبي في هذه الفترة يقرأ ويكتب ليلاً ونهاراً. يختفي حيناً ويظهر حيناً آخر، حتى كان اصدقاؤه لا يعرفون أعائد هو من سفر أم معتكف في البيت.

وترك آثاراً مخطوطة حمل منها ثلاثة الى القاهرة في رحلته الاخيرة ليطبعها. وهي « نقل الاديب » و « أمالي النشاشيبي » و « التفاؤل عند ابي العلاء ». اما سائر آثاره التي لم تُرَ فهي كتاب « الأمة العربية » و « حماسة النشاشيبي » و « جنة عدن ». ولم ينظم الشعر بعد الحرب الكبرى، ولم يشأ ان يشيع شعره الذي نظمه قبلها على كثرته. لقد اراد ان يكون اديباً من الطراز الاول، ولم يجله شعره في هذه المرتبة فزهد فيه غير آسف. وحقق

له النثر ما أراد فأجمع الناس على وصفه « بأديب العربية ».

كان النشاشيبي اديباً فذاً لا نظير له بين أدباء عصره . وفي رأيي انه جاهد ليبدع في النثر ابداع صاحبه ابي تمام في الشعر ، فغاص في كثير من أقواله غوصه ؛ وتأنق تأنقه ، وحلى تحليته ، ورمى بتلـــك القرون الطوال وراء ظهره ليظهر في ثوب القرن الثاني الهجري . ومهما قيل في أدبه فإنه عاد بالاسلام الى القرن الثاني ، بل الى القرن الاول ، وكان ما أراد دون ان يقصد ما كان . فقد بدأ شاعراً واديباً منشئاً ، وناقداً وراوية وانتهى فقيهاً مجتهداً ، قويّ الحجة ناصع البيان . ولكأنه من فقهاء المسلمين في صدر الاسلام يتخذون اللغة وسيلة للتفقه في الدين وفهم أسرار القرآن الكريم . على ان شيئاً في النشاشيبي لم يتغـــير ولم يتبدّل ، هو حبه للغته حباً منقطع النظير ، وغيرته على وطنه العربي الكبير غيرة عديمة المثيل ، في بيئة لا يثبت فيها على حبه هذا الا من راض نفسه على عذاب كعذاب السعير .

وسافر النشاشيبي الى القاهرة شتاء عام ١٩٤٧ ليشرف على طبع مخطوطاته الثلاثة ، وليتطبب ، وظلّ مع سمّاره يشنف آذانهم بأدبه العذب ونوادره المطربة الى ان عاجلته المنيّة فجأة في الساعات الاولى من صباح الخميس الواقع في ٢٢ كانون الثاني . وهكذا انطفأت شعلة كان لها سنى البرق واريج المسك .

معجم القرآن الكريم

•

ليس في العربية كتاب عكف العرب والمسلمون على درسه وشرحه وتفسيره كالقرآن الكريم . فمنذ اربعة عشر قرنا وهو موضع دراسات متنوعة لا تكاد تنقطع في عام من الأعوام . ومع ذلك فقد أغفل الدارسون والمؤلفون جانباً يُعدّ اغفاله – في نظرنا – من اعجب الأمور ؛ ذلك هو وضع معجم يشرح جميع ما يرد في القرآن الكريم من طير وزهر ونبت وشجر ولباس وآلةٍ موسيقية ومدن ورجالٍ وقبائل وأنبياء وقصص ، وما الى ذلك مما يمرّ به القارىء دون ان يقف على كنهه او يستقصي اصله وتاريخه . فاذا قرأ المنّ والسلوى (سورة طه الآية ٧٩) فلا يقنع بقول الشراح إنهما الترنجبين والطير والسُمانَى ، بل يطلب المزيد من المعرفة حتى يصل الى وصفها بوجه الدقة والحصر . وإن قرأ السِدر والطلح (سورة الواقعة الآية ٢٧ و٢٨) لم يكتف بقول الشراح إنهما شجر النبق والموز . وإنّ

رأى الاستبرق (سورة الكهف الآية ٣٠ ، والدخان الآية ٥٢ ، والرحمن الآية ٥٣ ، والدهر الآية ٢١) تلمّس مواطن وروده ، ووقف على وصفه ، وتتبّع أصل اللفظة ومنشأها . وقل مثل ذلك فيما يرد من اسماء أعلام واماكن واشارات الى قصص وأخبار وما الى ذلك .

هـذا المعجم لا يستغني عنه قارىء القرآن الكريم سواء أمسلماً كان ام غير مسلم ، طالب هداية وبركة أم طالب عالم وتحقيق . وهو نفسُه يؤدي فائدة مزدوجة : فمن جهة يُعين على التوضيح والفهم العميق ، ومن جهة اخرى يؤدي الى دراسة طريفة في تاريخ العرب الثقافي والاجتماعي والأدبي زمن الرسول عليه السلام وقبيل الاسلام ، كما يؤدي الى مقابلات بين ثقافات الأمم المعاصرة للأمة العربية .

وليس من شك في أن القرآن الكريم أصحّ وأصدق مصدر لجميع العناصر الأوليّة التي تؤلف كيان الحياة الجاهلية والاسلامية ، ذلك الكيان الذي نعتمد في إدراكه على الخيال أو ما يُشبه الخيال .

وأمامي الآن مباحث جزئيـة تتناول شطراً يسيراً من هذه الدراسة الواسعة ، منها ما يتناول أسماء الطيور الواردة في القرآن الكريم ، ومنهـا ما يتناول أسماء الحيوانات ، ومنها ما يتناول أسماء الآلات الموسيقية ، ومنها ما يتناول

النباتات والأزهار . وهي مباحث أوليّة يُقصد منها الانتفاع الفردي ، إذ أن مثل هـذه المباحث يجب أن يتفرّغ لها عدد كبير من العلماء المتبحرين في علومهم .

بيد ان ما أودّ ان أشير اليه هنا هو ان هذه المباحث تؤكد النظرية العامة التي لم يرتب في صحتها باحث قط ، وهي سلامة القرآن الكريم سلامة كلية من أية ريبـــة ، وصحته صحة تاريخيـــة علمية . فقد رأيت بعض الباحثين الاوربيين يتخذون من ترتيب سور القرآن الكريم على النحو الذي نجده في المصاحف دليلًا على صحته . وأظن ان إيراد الأدلة العقلية المنتزعة من القرآن الكريم نفسه للتدليل على هـــذه الصحة مذهب قديم سليم ، ان لم نقل انه أقوم مذهب وأسلمه .

*

لا ريب في ان دراسة القرآن الكريم على هـذا النهج أمر جليل الفوائد . والواقع انه يبـدو غريباً غاية الغرابة ان يَغفل المسلمون في تاريخهم الطويل عن الاضطلاع بها . وأغلب الظن انهم لم يغفلوا ، ولكنهم ضمنوا الشروح التي نقصدها تفاسيرهم الواسعة دون تقيّـــد بتبويب أو ترتيب خاص على النحو الذي أشرت اليه .

وقد أخبرني أحد علمائنا الثقات أنـه قرأ في مصدر لم

تذكره ان احد ملوك المسلمين جمع علماء عصره من فقهاء ولغويين ومؤرخين وفلاسفة وأطباء وجغرافيين ومَنْ شاكلهم ووكل اليهم أن يفسروا القرآن تفسيراً شاملاً لجميع العلوم والفنون ، كلٌّ حسب اختصاصه فالفقيه يشرحه من ناحية الفقـــه ، والنحوي من ناحية النحو ، والجغرافي يشرح ما ورد من أسماء بلدان ، والنباتي يشرح أسماء النباتات . فانقطعوا لهذا العمل ، وجاء تفسيرهم في مجلدات كثيرة يتطلّب نسخها عشرات السنين . فهذه الرواية – إن صحّت – تُثبت أن القدماء أدركوا ما لهذه الدراسة الوافية العميقة من شأن ، وأنهم حقّقوها على وجهٍ لا نعرف – وا أسفاه – عنه شيئاً حتى نحكم أيطابق ما نقصده أم يخالفه . ولكنا نتصوّر ، على كل حال ، أن العصر الحديث يتذرّع بوسائل شتى لم تكن مألوفة في العصور الماضية لتبيان المـــادة المعروضة وتحديدها ، وأقل ما يصحّ أن يُذكر هنا التصوير والرسم . فليس اوضح في شرح اسم لباس أو طير أو نبات من عرض صورته . وتغني الصورة أو الرسم عن الجمـــل المبهمة أو التعريفات « التقليدية » التي ربما تزيد في الابهام .

*

وبين ايدينا – لحسن الحظ – دراسات من هذا النوع في غاية الدقة والتفصيل تتناول الكتاب المقدس . فقد وضع

العلماء الاوربيون مؤلفات بعضها في مجلد ، وبعضها في بضعة مجلدات ، مرتبة حسب الابجدية ، أسموها جميعاً معجم الكتاب المقدس . أذكر منها على سبيل المثال :

(١) Dictionaire De La Bible لمؤلفه F. Vigourow طبع سنة ١٧٩١ . وذيله المسمى Supplément au Dictionaire De La Bible في جزءين طبعا سنة ١٩٢٨ .

(٢) A Dictionary of the Bible لمحرره* James Hasting ومساعدة اربعة من العلماء . وقد صدر في اربعة مجلات وملحق . صدر الجزء الاول سنة ١٨٩٨ ، والثاني سنة ١٨٩٩ ، والثالث سنة ١٩٠٠ ، والرابع سنة ١٩٠٢ ، والملحق سنة ١٩٠٨ .. واحتوت هذه المجلدات على مقالات في اسماء الاعلام والاماكن والآثار والحفريات وعلم سلالات البشر Ethnology ، وطبقات الارض والتاريخ الطبيعي ، وفقه الكتاب المقدس Bible Theology ، وعلم الاخلاق Ethics الخ .. وفي الكلمات المماثة المستعملة في الترجمة الانكليزية ، وفي الموضوعات المهملة والصعبة . واشترك في تحرير هذا المعجم عدد كبير من العلماء تناول كل منهم الموضوع الذي تخصص في درسه وأحاط به إحاطة جيدة ،

---

* Dealing with its Language, Literature, and Contents including The Biblical Theology.

مذيلًا موضوعه باسمه لضمان الامانة العلمية . ثم راجع المحرر ومساعدوه وهيئة من العلماء تلك الموضوعات وأقروها .

(٣) وصدر عن جامعة شيكاغو عام ١٩٠٨ Old Testament and Semitic Studies في مجلدين ألّفه ثلاثة من العلماء .

(٤) وصدر عام ١٩١٠ The Temple Dictionary of the Bible * في مجلد واحد ليكون في متناول عامة القراء . وقد سار محرراه W. Ewing و T. Thomson على غرار المعاجم السابقة ، فأشركا عدداً من العلماء المتخصّصين في كتابة بعض المباحث ، وقاما بالمراجعة . بيد ان لهذا المعجم ميزتين : الأولى أنه استفاد من الابحاث والاكتشافات التي جدّت في مصر وفلسطين ، وخاصة ما وصلت اليه جمعية الآثار في فلسطين من معلومات جديدة . والثانية أنه تجنّب المسائل النظرية والجدلية واقتصر على المعلومات منها .

(٥) وصدر في العربية كتاب « مرشد الطالبين الى الكتاب المقدّس الثمين » سنة ١٨٦٨ في مدرسة العلوم الأميركية في عبيه (لبنان) في ثلاثة أجزاء مجموعة في مجلد واحد . يبحث الجزء الاول منها في وصف الكتاب المقدس والقوانين المفيدة لقراءته . والثاني يُفصّل أسفار

* Deals with Biblical Antiquities, Biography, History, Literature, Manners and Customs, Natural History, Geography, and Topography.

العهدين القديم والجديد . والثالث يوضّح أموراً متنوعة مذكورة في الكتاب المقدس أو لها علاقة به من جهة ما . ومن أطرف ما في هذا الجزء الفصلان السادس عشر والسابع عشر اللذان يتناولان الآلات الموسيقية والأوزان والنقود والمكاييل والمقاييس التي وردت في الكتاب المقدس . والكتاب مفيد ولكنه دون ما صدر باللغات الأوروبية حجماً ونوعاً وترتيباً .

وذلك عدا المجلات التي تصدر في مختلف اللغات الاوروبية قاصرةً على دراسة الكتاب المقدس وجميع المباحث التي تتصل به . وفضلُ هذه المجلات في عرض المشاكل على ضوء ما يجدّ في كل وقت من اكتشافات ومباحث. ومن أشهرها : La Revue Biblique التي يحررها منذ خمسين عاماً الآباء الدومنيكيون القائمون على « المعهد الكتابي والآثاري الفرنسي في القدس الشريف » .

*

واذا أضفنا الى هذه المعاجم والمجلات التي يُنتفع من مادتها واسلوبها أيما انتفاع ، ما جمعه مفسرو القرآن الكريم — لا سيما المتقدمين منهم — من معلومات لغوية وتاريخية وجغرافية ودينية ثمينة ، تبين ان « المعجم القرآني » قد مُهدت في سبيله كثير من الصعاب ، وأضحى البناء ميسوراً

لقيامه على منوال سابق مألوف .

ولكنّ هناك أمراً واحداً لا يصحّ ان يغرب عن البال وهو أن هذا المعجم يتطلب دراسات واسعة ، بل أوسع مما يتصوّر لاول وهلة ، يضطلع بها عدد كبير من العلماء ذوي التخصص والجلد والميول العلمية ، مدة زمنٍ ليس بالقصير ، تحت اشراف هيئة علمية . ولا شك في ان جزءاً كبيراً من هذه الدراسات يجب ان يتم في موطن الوحي نفسه .

فهل يظفر القرآن الكريم بهذا المعجم ؟ إن ظفر فانها لغنيمة خليقة بأن تُشَدَّ اليها الرحال ، وتُبذل في سبيلها الاعمار والاموال ، ويتعاون عليها الافراد والجماعات . وان لم يظفر فلنحفظ هذه الامنية الغالية في صدورنا الى ان يشاء الله .

ابو العلاء المعلم

•

تناول الكتّاب شخصية ابي العلاء من جميع نواحيها حتى يكاد الباحث ان لا يجد ناحية خالية من الدرس والبحث .

وقد رأيت وانا اقرأ سيرة ابي العلاء في كتب المتقدمين ناحية لم يطرقها احد من قبل ، إما سهواً وإما استخفافاً . تلك هي شخصية ابي العلاء المعلم .

وقد بدت لي هذه الشخصية واضحة طريفة حتى لأكاد اقول إن ابا العلاء كان معلماً اكثر منه شاعراً وكاتباً وحكيماً ، وانه لم يخلد على الزمن بشعره ونثره وحكمته ، بل بهذه الرسالة « التعليمية » التي حملها زهاء نصف قرن ، وجعلت من بيته الصغير « دار علم » في الاسلام ، يجب ان تذكر الى جانب الدور التي كانت منتشرة في أمهات المدن الاسلامية ، والتي نسميها تجوّزاً « الجامعات الاسلامية » كالنظامية والمستنصرية .

ولعل من حسن التوفيق ان أجد نصاً في كتاب ابن العديم يذكر « ان الوزير الفلاحي كتب الى عزيز الدولة ابي شجاع فاتك متولي حلب واعمالها يحمل هذا العالم الى مصر ليبني له (دار علم) يكون متقدماً فيها ، وسمح بخراج معرّة النعمان له في حياته

وبعده ، وان عزيز الدولة نهض للوقت وسار الى معرة النعمان واجتمع بأبي العلاء وقرأ السجل . وكتب الى الوزير الفلاحي يستعفيه من ذلك وسومح بترك ذلك كله » .

واذا كان ابو العلاء استعفى من قبول هذه الدار فلا شك في انه آثر البقاء في « دار علمه » المتواضعة التي كان يتوارد اليها الطلاب من جميع اطراف البلاد العربية .

يزورني الناس هذا ارضه يمن من البلاد وهذا ارضه حبش

*

لم أجد في كتب المتقدمين وصفاً لدار ابي العلاء . وكل ما قيل انها كانت داراً حسنة بأويها . وقد حججت سنة ١٩٣٧ (ثم سنة ١٩٤٨ مراراً) الى المعرة ، فوجدت حينئذ في احدى غرفها ضريراً يعلّم على أسلوب الكتاتيب ، ووجدت في أخرى شاهدة عُبث بها ، ووجدت غرفة ثالثة مهجورة . وهذا ما رآه الاستاذ سامي الكيالي عند زيارته إياها . ويقول الاستاذ الكيالي ان الغرفة الثالثة لا يزيد طولها على ثلاثة امتار وعرضها على مترين .

ففي هذه الدار القديمة ذات الغرف الثلاث جلس ابو العلاء للتدريس . ولعله اتخذ غرفة لمضجعه ، وأخرى لمصلاه ، وثالثة لخدمه . ويستأنس من نصّ رواة تلميذه ابو زكريا التبريزي انه كان يقعد للتدريس في مسجده . وليس ما يمنع أن يتسع المسجدُ لطلابه اذ المعقول أنهم وفدوا عليه في اوقات مختلفة . واطول مدة قضاها عنده احدُ طلابه ، الرئيس ابو المكارم الأبهري ، اربع سنين . واقام التبريزي اكثر من سنتين .

ولم يمرّ بالمعرة وزير او فاضل الاّ قصده واستفاد منه او طلب شيئاً من تصنيفه. ولكن علمه تجاوز من حضره الى من لم يحضره. فكتب اليه كثيرٌ من طلاب المعرفة من مختلف الطبقات. وأجابهم جميعاً لا برسائل قصيرة بل بكتب ضخمة. فهذا امير يسأله ان يؤلف كتاباً برسمه فيضع له كتاباً اسمه تضمين الآي في اربع مائة كراسة. وهذا واعظ يستعين به فيضع له كتاباً اسمه المواعظ الست في خمس عشرة كراسة. وهذا صديق يعتب فيكتب اليه رسالة الغفران. وقس على ذلك عدداً كبيراً من الكتب والرسائل يشهد له بالمروءة والبرّ، وبأنه كان معلماً لعددٍ لا يُحصى من طلاب المعرفة.

وعلم الشعراء مكانته (التعليمية) وتمكنه من اللغة والادب فعرضوا عليه شعرهم وحكّموه بينهم. فهذا ابو نصر المنازي يدخل عليه في جماعة من أهل الأدب، ويُنشد كلّ واحد منهم ما تيسر من شعره، وينشد المنازي قصيدته التي مطلعها:

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ سقاه مضاعف الغيث العميم

فيحكم له ابو العلاء أنه أشعر من في الشام. ثم يلقاه المنازي في جماعة من أهل الأدب في بغداد، وابو العلاء لا يعرف منهم أحداً، فينشد كلّ واحد ما حضر من شعره، وينشد المنازي قصيدته التي مطلعها:

لقد عرض الحمام لنا بسجع اذا أصغى له ركبٌ تلاحى

فيقول له ابو العلاء: ومَن في العراق، عطفاً على قوله السابق ومن في الشام. وهذا كاتب يُنفذ اليه نسخة من شعر البحتري

لتصحح، فيثبت له الاغلاط كأنه حاضر للقراءة. وهذا امير يبعث اليه نسخة من ديوان الحماسة يسأله ان يخرّج في حواشيها ما لم يفسره المفسر، فيفرد له كتاباً مقداره اربعون كراسة. وهذا طالب علمٍ من اليمن يقع اليه كتاب في اللغة سقط أوله واعجبه جمعه فحمله معه الى الحج وعرضه على الادباء فلم يجد أحداً يرشده. فدُلّ على ابي العلاء فاحتج به وعرّفه ما حمله على الرحلة اليه. وما قرأ الطالب منه شيئاً حتى عرفه ابو العلاء وذكر له اسم مؤلفه وأتمّ له النقص.

كان ابو العلاء كسائر علماء القدامى يُلمّ بكل موضوع. ولكنه تميز باحاطته بمفردات اللغة إحاطةً تكاد تكون منقطعة النظير. وطغت عليه هذه الظاهرة حتى أفسدت عليه بعض كتبه. وقد علّم طلابه ما علم. علّم الحديث والفقه واللغة والشعر وما يتفرّع منها من نحو وغريب وعروض وما اليها، ووضع فيها الكتب، منها ما هو تأليف ومنها ما هو شرح. شرح كتاب سيبويه، وخطبة أدب الكاتب لابن قتيبة. وفسّر شعر ابي تمام وشعر المتنبي. وذلك عدا شعره ونثره مما كان يمليه على طلابه ويشرحه لهم ويجمعه في كتب منفردة.

وتجاوزت رسالته «التعليمية» الافراد الى الجماعات. ولنسأل هنا: أكان ابو العلاء معلماً اولاً ومصلحاً اجتماعياً ثانياً ام العكس؟ والذي أراه ان كل الرسالتين تنبعث من منبع واحد. فالمعلم الحق هو مصلح. والمصلح الحق هو معلم. ورسالة المصلح والمعلم واحدة. واذا خلت رسالة المعلم من الاصلاح كانت رسالة جوفاء لا لبّ فيها.

واذا خلت رسالة المصلح من التعليم كانت دعوة بلا وسيلة . وابو العلاء كان معلماً حقاً . جمع بين طرفي الرسالة أحسن جمع . علّم من طلب العلم من قريب او بعيد . وعـــلم من لم يطلب العلم لا من قريب ولا من بعيد . وجعل للثاني عليه حقاً كحق الاول او يزيد .

ولا اشرح المبادىء التي قامت عليها مدرسة ابي العلاء العامّة ، فقد تناولها اكثر الذين كتبوا عنه حتى تضخمت شخصية ابي العلاء المصلح وطغت على سائر النواحي . والكتاب معذورون ، لا لأنهم جهلوا أبا العلاء العالم ، وأبا العلاء الشاعر ، وأبا العلاء اللغوي ، وأبا العلاء الكاتب ، ولكن لأن أبا العلاء تفرّد بهذه الرسالة واضفى عليها من روحه ، واكسبها قوة من بيانه . يضاف الى ذلك ان الناس في عصره فهموا الأدب فهماً ضيقاً . فهموه على أنه بيان جميل رائع فحسب . وفهموا التعليم فهماً قاصرا ، إذ حسبوه وسيلة لنقل المعارف فحسب . فجاء ابو العلاء وأبان لهم رسالة الأدب ورسالة التعليم كما يجب أن تكونا . فبهتهم حيناً وبهرهم في سائر الأحايين .

*

وكيف كانت علاقة هذا المعلّم بتلاميذه ؟

لا شكّ أولاً في انـه لم يتقاض منهم اجراً على تعليمهم . بل نحن نجد غير نص يشير الى أنه كان يُجري على جماعة منهم رزقا . وقصّة أبي زكريا التبريزي شاهد صدق على ذلك . فقد روى أنه حين قدم عليه أعطاه صرة فيها ذهب لينفق منه عليه وليتفرّغ هو

الى الاستفادة . فأخذ ابو العلاء الصرّة ووضعها عنده . وتقدم الى وكيله وأجرى للتبريزي ما تدعو اليه حاجته . فتناول ذلك مدة مقامه في المعرّة وهو يظن أنه من ذهبه الذي دفعه الى الشيخ . فلما أراد الانصراف الى بلده دفع اليه أبو العلاء صرته بعينها . وحاول التبريزي أن يحمله على أخذها فامتنع .

ويبدو برّه بتلاميذه في رفقه بهم وعطفه عليهم . ومن ذلك ما رواه التبريزي أنه بينما كان قاعداً في مسجده يقرأ عليه شيئاً من تصانيفه دخل فجأة جار له من بلده فتغيّر من الفرح . فقال له أبو العلاء : ما أصابك ؟ فحكى له أنه رأى جاره بعد ان لم يلق احداً من بلده منذ سنتين . فقال له ابو العلاء قُم وكلمه . فقال التبريزي : حتى أتمّ السبق . فقال ابو العلاء : قم ، أنا انتظرك . فقام وكلمه ثم عاد .

وأراد حساده ان يدسوا له في غير مسألة . فكانوا يغرّرون ببعض طلابه يدفعون اليهم الاسئلة ليحرجوه . وكان هو يدرك ذلك فلا يثور ولا يُعنّف ولا يزيد على ان يهدد بفراقهم .

ولا نعلم أنه كلّف احداً من تلاميذه أن ينسخ له . فقد وكل ذلك الى اقربائه ومن في جرايته . وخص ابن اخيه أبا محمد — الذي تولى قضاء المعرّة زمن عمه — بكتابة الاجازة والسماع . وحتى هؤلاء الاقرباء والنسّاخ نالوا فوق ما يجب من الشكر والعطاء . وقد اعتبر جميل ابن اخيه محمد كجميل أمه .

ولكن اسمى مظاهر البر بتلاميذه يبدو في هذا العمل الذي لا نجد له نظيراً في تاريخ المعلمين .

ذلك هو تأليف الكتب برسمهم وعلى اسمائهم . فوضع (ضوء السقط) لتلميذه ابي عبدالله الاصبهاني . ووضع (عون الجمل) – شرح فيه شيئاً من كتاب الجمل – لخادمه وابن خادمه ابي الفتح ابن ابي هاشم . ووسم كتاباً من كتبه (بالمختصر الفتحي) باسم أبي الفتح هذا . وذلك عدا ما ألف لطالبين كثيرين من غير تلاميذه .

وقد كنا نحسب ان رجلاً في علم أبي العلاء ومزاجه وحاله الجسماني معرّض لغرور ينتابه أو للفظة نابية يوجهها في حال غضب لمن يجب عليهم احترامه من قريب او تلميذ . ولكنه بريء من هذا براءة صاحب الرسالة العامل بها او قل براءة المعلم الحق الذي يأخذ نفسه بالفضائل قبل ان يأخذ بها غيره .

ولست مغالياً بقولي إن أبا العلاء « المعلم » المصلح الثائر على الترهات والاباطيل ، الساخط على المظالم والآثام ، هو ابو العلاء الحق ، وهو ابو العلاء الخالد على الزمن ، وهو ابو العلاء الذي نذكره كلما أفنَت العقول وذرّت قرون الشياطين ، وبغى باغون أفاكون او دجالون .

فما أحوجنا الى رجل جريء صريح مثله ! وإن كنا لا نجد في هذا العصر نظير أبي العلاء فلنقرأ كتبه لعلّ فيها بعض العزاء .

الفهرست

	صفحة
مقدمة	٥
هل الادباء بشر ؟	٧
المقالة في الأدب العربي الحديث	١٤
صناعة النقد في الأدب العربي الحديث	٢٠
هل ظهر في فلسطين أدب وأدباء ؟	٢٨
أساتيذ وأساليب	٣٧
صَلَف	٥٥
عواطف العرب	٦٣
أديب العربية محمد اسعاف النشاشيبي	٧٢
معجم القرآن الكريم	٨١
ابو العلاء المعرّي	٨٩

١١٨ـ٣ـ٥٠

الحسيني، اسحاق موسى
هل الادباء بشر؟
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01033338

AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

892.709
Ha394hA